عبد الستار ناصر

رواية

نصف الأحزان

أبو عبدو البغل

دار الآداب

عبد الستار ناصر

نصف الأحزان

روايـة

دار الآداب

نصف الأحزان

عبد الستار ناصر/ روائي وقصاص عراقي
الطبعة الأولى في دار الآداب عام ٢٠٠٠
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص. ب 123 4 -11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861632 / 861633(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab @ cyberia.net.lb

الفصل الأول

«ينسى المرء غلطته عندما يعترف بها الآخر ،

الآخر لا ينساها أبداً» .

بول فاليري

أعادوني إلى بيتي في الرابعة فجراً ، قد لا يكون الوقت هو الرابعة فجراً ، إحساسي هو الذي يقول ، وهناك اختفيتُ عن العالم كله ، أغلقتُ بابي على قشعريرة جلدي ، وقررت النوم علاجاً لهذه الرجفة التي احتوت جسدي ولم تفارقني أبداً .

*

في السابع من كانون الثاني ، بينما المطر يأخذ مني نصف أحزاني ، كنت أطرق الباب ، أدري أنها تنتظر منذ تسع سنوات وأربعة شهور ، كيف أصدِّق أنني سأرى «عواطف» بعد ألف حلم وألف فرسخ من شوق جامح؟

أتذكَّر ملامحها ، كل مسامة من جلدها أكاد ألمسها بأصابعي ، ثلاثة الآف وأربعمائة وخمسة أيام ، لم يفارقني الشوق إليها . . أيام اعتقالي وبكائي وخراب حياتي ، مرت على حلم واحد ، أن تكون لي

وحدي ، هذه المرأة التي أسمع اسمها مع كل نبض في القلب ، مع كل سوط من يد الجلاد وهو يشتم أجدادي وعشيرتي والرحم الذي أخرجني إلى الدنيا ، لماذا يكفُّ الجلاّد عن الضرب إذا نظرنا إلى عينيه؟

عضة كلب مسعور ، ذاك السوط النازل فوق ضلوعي ، ينغرز بقوة نحو العظام ، أتحسَّس نزف دمي وأنا أتعب حتى من الصراخ ، لا جدوى ، ينبغي أن تموت في هذا الجُب الخانق ، لا أحد ينقذك من الهلاك سوى صورتها المعلّقة على ذاك الحائط الملوَّث بالدم والدموع وبقايا الطعام .

لم يكن غير (عبد الباري) في تلك الغرفة المغلقة ، كلانا ينتظر نهايته بإحساس واحد : أن أسبقه بموتي أو يسبقني ، لئلا يكبر حجم الفاجعة وأنا وحدي ــ هو وحده ــ في تلك الغرفة الملطّخة بالحنين والدم .

يالتلك الوحشة الرهيبة ، ماذا تفعل في النفوس ، جرجرتني ومعي عبد الباري إلى ثرثرة أطول من بحر وأعمق من محيط ، كنا نحكي عن كل شيء وعن أيِّ شيء ، يذبل الخجل بيننا ساعة إثر ساعة ، أقصُّ عليه أخطائي وطفولتي ، ويحكي بدوره عن «عواطف» زوجته التي جُنّ بها ، وكاد اشتياقه اليها أن يقتله لولا أنني تركت له المسافة كلها والوقت بأجمعه ليحكي عنها .

كيف يمكن أن تصف الطائر إذا ما اختلط مع الغيوم والسحب البيض؟ من يملك الحق في رسم عينين لا يمكن الغوص إلى

بريقهما؟ إذا تركوها مع ألف حسناء ، وحدها من يقف القلب أمام رحيقها ويسكت من فرط اللوعة . . تركتُ له المسافة كلها ، ولم يتعب من وصف الندى والحقول والنوارس والمطر .

انتقل جنونه بها إلى عقلي ، صرت أراها في كل حلم يمرُّ بي ، بدأت أحس بأنفاسها والجلاد يصفعني على أنفي يوشك أن يكسره بأصابع من اسمنت ، لا تريد أن تختفي هذه المرأة التي علّق صورتها أمام عيني ، كيف لها أن تختفي وعبد الباري يأتي بها قبل الفطور وعند الغداء وبعد العشاء؟ «عواطف» هنا ، بيننا ، «عواطف» فينا ، تشاركنا الطعام الفقير ، لا كلام إلاّ عنها ، ولا طوق نجاة من الوحشة إلاّ بها ، صرت أعرف ألوان فساتينها وشكل الحذاء الذي تحب وتسريحة شعرها عندما تنال قسطاً من الفرح ، أعرف يوماً بعد يوم ، شهراً بعد شهر ، وسنة تلو سنة ، كيف تبتسم وكيف يجيء جرس ضحكتها وماذا تفعل حين يأخذها عبد الباري إلى الفراش .

*

لا كلام في السجن ، غير الكلام عنها ، أسرارها صارت عندي ، وطقوسها بين أصابعي ، فهي تشرب كأساً من البيرة مساء كل خميس ، تدخن ثلاث سجائر في اليوم الواحد ، ملابسها الداخلية سوداء على مرّ العصور ، يحكي عنها بشغف ولذة . أشعر بلعابه حول فمه وهو يصف دوران فخذيها وقوة جلدها والندبة القهوائية على الجهة اليسرى من عجيزتها ، والسرَّة التي خرجت من أجمل عناقيد

العنب لتبقى معها حتى يوم الدين .

لم يترك عبد الباري أيما مساحة لخيالي ، فقد قال كل شيء ، راح يسبح في ذكرياته حدّ أنه ينساني وهو يحكي عن لهاثها وحروبها الخفية فوق الفراش ، بل كدت أسمعه وهو يصرخ بها (أن ترحمه من هذا الشبق الدموي) فهو كما راح يقول(إنسان من لحم وأعصاب ودم) وزوجته لا ترحم ، إنها تريد أكثر مما ينبغي ، لا تشبع من هذا الشيء الغريزي الطافح باللذة والنعمة .

ــ أجل ، إنها ترى في هذه المتعة (نعمة) من السماء وتؤمن أنَّ الإفراط بها ليس عيباً ما دام الأمر على (سُنة) الله ورسوله .

قلت له :

ــ هذا جميل يا عبد الباري ، بعض النساء ــ كما تعرف ــ أبرد من شباط .

كنت قد أعطيته فرصة ثانية لاعترافات أخطر ، سلّمته منديل الأمان حتى ينفكّ لسانه إلى أبعد أطراف الغيب ، أعترف حقاً ، بأنني أدفعه بقوة إلى شرح الماضي والدخول إلى منزله الخفي ، ماذا دهاك؟ ليكن ما يكون ، من قال إننا سنرى الحياة مرة أخرى بعد هذا الليل المزحوم بالضرب والشتائم والحبال والعصيّ؟ أريد منه أن يحكي عن الزوايا والشعاب التحتانية حتى أرى وأشبع :

ــ إسمع يا سلمان ، ما بيني وبينكَ سوف ننساه معاً ، اذا أنقذنا الله وخرجنا من هذه المحنة .

قلت له وأنا أبتسم مع جرح في القلب :

ـ دعه ينقذنا أولاً يا عبد الباري ، وأُقسم أمامك ألف مرة على أنني سأموت ولن أنطق بكلمة واحدة عن ذلك كله .

*

متراً واحداً ، كان عرض الغرفة ، وطولها متران ، هل من هواء يكفي جسدي؟ هذه المرأة لا تشبه النساء ، من أين جاءت؟ قلت لها في حلمي : ما اسمك؟ يرتفع ثوبها ، أرى قطعة من حرير أبيض منقّط بدوائر حمراء ، رأسي يلف زوايا البيت كلها ، كمن ينوي اقتراف جريمة . .

قالت : اسمي «عواطف» ، هل يهبك اسمي بعض الراحة؟ تضحك مثل مومس ، خلعت نظارتها ، رأيت عينيها و . . . سقطتُ أرضاً .

إنهم يأكلونني بهذا السوط ، بهذه النار التي تنهش لحمي ، بهذه النار يا «عواطف» ، لا أدري لماذا يختفون وراء هذه الزجاجات السود ، أريد أن أرى وجه قاتلي ، أريد أن أعرف لون عينيه ، لماذا يختفون دائماً خلف هذا السواد الرخيص؟ إنهم يملكون جوازات سفر ونساء وطائرات وأموالاً وسكاير محترمة ، ويختفون خلف زجاج أسود !

اخبريني ، لماذا يخاف الجلاد من ضحيته؟

لم أحتمل ، مددتُ يدي إلى صدرها ، صرخت بي : تأدّب يا رجل ، عليك أن تعرف أولاً من أنا ، ولماذا جئت ، وما هو الثمن؟

راحت تقرص أصبعاً من أصابعي ، وأنا أعوي ألماً وشهوة . . رأيت بنصري في اليد اليسرى ، وإبهامي في اليد اليمنى ، دون أظافر . .

وأحببتُ «عواطف» أكثر . . . أحمد الله أنها تأتي في حلمي وساعات التعذيب اليومية ، لا أدري ــ دون ذلك ــ كيف يمكنني البقاء حياً؟

على جرف من الدمع ، سقط الليل على ستائر من فضة ، كثيرة هي أحلامنا ، أنا وعبد الباري ، وأكثر منها كوابيس النهار ، أصابع الجلاد وهو يفتح باب المراحيض فجأة ليسخر من كبريائي أو ليضرب رأس عبد الباري بعصاً من خشب وأسلاك ، قرنابيط طوال أسبوع ، وكلانا لا يأكل غير هذا الورق الأبيض المغمَّس بالتراب ، بطني منفوخة بفراغ رملي لا أفهمه ، أشهق عن خوف أكبر من طولي ، وعبد الباري يقترب من صراط الموت وما يزال ينتظر اليوم الذي سيرى فيه «عواطف» لينام ليلته الأخيرة في حضنها الشرس المطمئن ، سنوات وهو ينهش نفسه بأصابع الحلم ، متى يراها وقد تكاثرت الخسائر إلى ما فوق التخمة؟ــ سلمان ، هل أنتَ نائم يا سلمان؟

ــ اسكت يا عبد الباري ، إذا سمعنا الحارس سوف يلتذّ بنا طوال الليل ، بطني توجعني ولن أحتمل الضرب في هذا الوقت من الليل .

راح يمسك يدي بقوة ويهمس بزفير مخنوق :

ــ سأموت يا سلمان ، سأموت ، أنا أعرف جسدي يا سلمان ، الموت يقترب مني ، افهمني يا سلمان ، جسدي يموت .

نظرت إلى عينيه ، وبرغم الظلام الدامس تمكّنتُ من رؤية الدموع وأنا أصغي إلى صوته يأتي من شهيق أعوج :

ــ يا خسارة السنوات التي انتظرنا فيها .

قلت له وأنا أمسك بطني :

ــ ما هذا الكلام الغبيّ يا عبد الباري؟ أنتَ أفضل مني سوف تراني وأنا أموت في هذا المكان البائس .

كنت أسمع الدموع وهي تمشي على خدّيه قبل أن يكرّر :

ــ أنا أعرف جسدي ، من طفولتي وأنا الذي يكتشف مكان العلّة ، كنت أريد أن أرى «عواطف» حتى لساعة واحدة قبل موتي ، يا الله ، هل تصدّق يا سلمان أنني كتبت إليها ذات يوم رسالة من القاهرة قلت فيها :

لا هذا البحر يروي عطشي ، ولا هذه السماء يمكنها أن تداري اشتياقي ، أُريدك هنا فوراً حتى (أقهر) القاهرة؟

قلت له وأنا أبكي في شعاب روحي :

ــ يا سلام ، أنت شاعر يا عبد الباري .

جسدي يتلوّى من وجعين ، عبد الباري وهذا الفراغ الوقح الذي ينبح تحت ضلوعي ، ليس عندي ما أفعله غير الصمت وأنا أرى عبد الباري يموت أمام عيني . . ليس عندي سوى الحقد وهو لا ينفعني هنا .

ــ وصلتنا أنباء سيئة بشأنه .

ــ بشأن من؟

ـ يقال إنه ذو سوابق ، ليس بريئاً كما ظننت أول الأمر ، وهذا يعني ، ربما . . . .

ـ غرفة التأديب ، مثلاً؟

يوم آخر أزرعه بالسؤالات ، عن هذا البيت الذي لا يعرفه أحد ، يوم آخر قد يكون الفاصل بين الهدوء والصخب ، بين العقل والجنون ، في داخل البيت ـ أعني هذا البيت ـ عند زاوية جدّ مهملة ومنسية منه ، ثمة بقايا من ماض مهمل ، نفايات ، أوراق ملوّنة بالتربة والدم ، مجلات مهترئة ، أرفع الورق المأكول من بين طيّات الوساخة ، أحتار في هذا الخليط من أوراقه ، قصائد وخرائط ورسوم ، رسائل مشطوب على بعضها بالحبر الأزرق ، دليل أسفار إلى روما وبرلين (للتدريب على القتل) مزقٌ هنا وهناك ، هل ينبغي إحراقها؟ أم أقرأ بعضاً منها؟

ماذا يريد إنسان مثلي؟ هذا الشيطان البريء الذي يلبس جسدي ويقتل كل نقائي؟ ماذا يجري من أسرار؟ بالأمس ، كنت مع امرأة ، ليل نهار ، تحت سماء الشمال ، ماذا شعرت وأنا أمارس (حريتي) معها؟ هل كنت سعيداً؟ هل يمكن أن أصبح غنياً بالفرح وأنا أشعر بالخيانة؟ جرثومة تسري في ممراتي ، تأكل أعضائي وتشلّ عقلي ، جرثومة لها وزن يضاف إلى وزني ، أحسّ بها ، أثقل من أيٍّ عضو في جسدي ، إنها أنا .

في تلك الليلة ، لم يسكت عبد الباري ، أسمعه وأغفو على كومة أحزان لإثنين لا يدري بهما البشر ، منسيِّيْن خلف حيطان المذبح

الكبير ، بطن منفوخة وآلام لا ينفع معها أي دواء ، رجل يحتضر ، يكتشف العلّة من وراء مساماته ، يحكي عن امرأة أحبّها ، لا يريد أن يرحم نفسه أو يرحمني ، سرقته الرغبة وهيأت لخياله شكل «عواطف» وجلدهاونظرة عينيها ، ربما صار يمسك أصابعها وهو يهمس أمام شفتيها ، لا يدري أنه راح يهمس في قراري ، أسمعه وأسابقه ، بخيالات ، أتهيأ للمرأة التي يقول لها : ساعديني أيتها المزحومة بالحياة ، ساعديني على أن أختار موتي ، فقد اختفى الأصدقاء واكتشفت نفسي وأخطائي ، أنت أعظم زهور الأرض وأنا أحبك جداً ، لكن ، لا ماء في هذا المكان ، لذلك ينبغي أن أتعلّم كيف أَحتسي شفتيك .

بدأت أفهم المكان ، شعابه وثقوبه ، ألوانه وجثثه ، آلاته المهملة ، من مات فيه ومن سيموت ، بدأت أراه ، أصبحت فيه خادماً وأميراً ، سمعت أنغامه وصراخاته ، عشت فيه حتى موتي ، كان تاريخي الذي سيبقى ، والبيت ، أعني هذا البيت ، ما كان بيت أحد من الناس ، لكن الذين يمرون عليه ويسكنون فيه ، يعرفون كل ما عرفته أنا .

ليس للإيجار ، وليس للبيع .

لا رقم عليه ، ولا أحد يملك مفتاحه سوى الوحوش .

أرى من خلف اسمنته ، كما في الكوابيس ، ثمة من يحمل فأساً وعلبة سجائر وذاكرة ممزّقة ، وأوراقاً وحفنة شاي ودموعاً لم تنزل بعد ، هل كان وجه الرجل الذي يحمل فأساً ، يشبه وجهي؟ هل كانت علبة السجائر في جيب غير جيبي؟ كل شيء مضى وانتهى :

السفر ، الجنون ، والضحك المملوء بالخوف والحب والحذر ، ها هو الخراب ، الصمت الذي انتهى اليه كل شيء ، حتى الشهيق .

لم أجرَّب الحزن كما الآن ، كانت قد أعطتني جسدها في الصباح ــ هذا الصباح ــ نسيت غيضها ، دغدغتْ جسدي في الصباح ، يا لهذا الحزن الذي يمتصّ دمي ، أعرف البيت ، مسالكه وانحرافاته ، الدم الذي انسكب على جدرانه وغطّى بعضاً من طابوقه وديدانه معاً ، أعرف الصور المغطّاة بالتربة والبعوض ، البيت كان بيتي ، أسكن فيه منذ طفولتي ، أعرف بصمات الموتى ، بصمات الجريمة ، وأعلم ما يخفي سردابه العتيق وماذا تخفي دروبه الضيِّقة العجوز ، هو الخراب الذي حلّ ، الصمت الذي انتهت إليه الحقائق كلها والتخاريف أيضاً .

ــ بالأمس ، ضربوه دون سبب .

ــ وهل نحتاج إلى سبب هنا ، لنضرب؟

ــ لكنه الآن بمفرده ، يكفيه الحزن الذي هو فيه .

ــ يا سلام ، ما هذه المشاعر المضحكة التي نزلت عليك؟ اسكت لئلاَّ يسمعك السيِّد .

*

هل جُنّ عبد الباري في تلك الساعة العربيدة من الليل؟

أنام وأصحو ، يقترب الفجر ، أصحو وأنام ، وما يزال عبد الباري يحكي عنها ، بل يحكي معها ، مرَّة عن حلم بعيد طاف به الدنيا ، مرَّة عن ملابسها السود وعن أمتع أيام العمر في أحضانها ، مرة عن شهر

العسل يقطعه بين بيروت ودمشق ، لم يسكت أبداً في تلك الليلة ، إنه يكشف عن علّة حقيقية في القلب ، ويبدو أن عبد الباري كان على حق وهو يكتشف ما في جسمه من عيوب .

لن يبقى سوى الهلاك البطيء ، سوى الفراغ الرهيب ، ما زلتُ أُحبكَ برغم هذا الجرح الذي يتَّسع ، أحبكَ وأكرهكَ ، وأحبك ثانية وأكرهك ، أحبكَ دائماً ، وأنتَ على ما في جسمك من مشهيات ، أعرف ، وهذا عذرك الكبير ، بأني أقذر منك ، في أول صيف ، حيث لا نساء ولا خمر ولا جرائد ، وحدك من يدري ، بهذا الجنون الذي يلفُّ أنسجتي ، الجنون الذي صار قدري ، أسقط فوق النار ، أحرق فيها جلدي ، جلد الثعبان الذي يتبدَّل متى شئت له ، كما يتبدَّل هذا الهاجس الممزوج بالسحر والدموع .

«تعالي ، كوني قطتي الوديعة ، ثم اغدري بي كما تغدر القطط الجميلة ، أُسامحك في الحُب والغدر ، تعالي ، إفتحي أزرار هذه الروح التعسة ، سأفتح فيك عواصم ، ليكن بعدها موتنا معاً ، اهملي هذه الحياة السمجة الواقفةَ مثل وظيفة ، يكفي أيتها الذكيَّة ما أنت عليه منذ (كم) من السنوات ، إنني أفتح بين عينيك :أن تخوني نفسكَ القديمة ، خذي «عواطف» من سجون بغداد ، ترهاتها ، خذيها إلى بحور الوجد واللَّذة والخيانات الرائعة . . .

خذيها من قيودها التي اعتادت عليها . . . وتعالي ، تعالي رجاء» .

أخذوه في الصباح ، نصف مشلول ينظر إلى عينيَّ ، إلى أعمق ما في دمي ، أرى الدموع هناك ، في جزء غامض من الجسد المعلول ،

ألهذا السبب كان يحكي طوال الليل؟ إنه يدرك اللعبة التي يسابق فيها نحو الموت ، وهل كانت هذه الحياة غير لعبة من أغبى ما نلعب؟ أتذكَّر حنجرته ، نبرة الموت ، آخر ما بقي منه في ذاكرتي ، همس يشبه النحيب ، ربما نحيب يشبه الكلمات ، أو حالة من عواء انساني مخنوق :

ــ سلمان ، يا سلمان ، معقول يا سلمان؟ أهذه هي نهاية ناس لا ذنوب لهم غير أنهم يحبون البلد؟ لك سلمان ، راح تعب السنين ، حتى أننا لا نعلم أي شيء عن مصير أطفالنا .

هل قلت له (أنا لم أتزوج بعدُ والحمد لله)؟ أظنني قلتها مع نفسي وهو ما يزال يهمس في رئتي :

ــ أنا حزين يا سلمان ، البلد ضاعت ، البلد (كلش) ضاعت يا سلمان .

*

بقيت وحدي .

لا أحد يخبرني بما جرى ، وحدي في ظلمة عنيدة ، لا صوت عبد الباري أسمعه ولا شيء هنا غير (صورتها) وكومة من خيالاتي وأوصاف لحمها وثيابها وعطورها وسجائرها الثلاث وكأس البيرة الذي تحتسيه كل خميس . . .

لا أدري ماذا حلّ به ، انقضى اليوم الأول صحبة الصمت يذبحني على مهل دون أن يأتي عبد الباري لينقذني من رعبي وتشنُّجاتي .

في محلة «الشوّاكة» رجل أعمى يتسوَّل الناس بثياب أنيقة ، عزيز قوم ذل ، نخجل من أناقته وشيخوخته ، نعطيه من (مال الله) ثم نراه أول المساء في (غاردينيا) يحتسي الخمرة كما الأمراء . .

إذا عاد عبد الباري ولم يمت ، سأحكي له الكثير من القصص ، سأمنعه من الكلام حتى يشفى (ما كان ينبغي أن يحرق نفسه طوال الليل في مناجاة زوجته وهو الذي يعلم بعلّة قلبه) وإن عاد سأفرض عليه حكاياتي وغرائب طفولتي لئلا يتعب ذاك الجسد المعلول الميِّت ، ويأخذونه ثانية إلى حيث لا أدري وهم القساة الذين يبصقون حتى على الماء بعد أن يرتووا منه .

وحدي ، أسأل الربّ أن يعيش عبد الباري ، لا أُصدِّق أن الساعات ستمشي هكذا ببطءوحشيّ ، وأنا وحدي ، لا أنيس ولا كلام ولا من شهيق بشريّ قربي ، ماذا يدور الآن خلف هذه الجدران؟ هل ما زالت «أم كلثوم» تغنّي وتصبّر نفسها على كلام حبيبها المعسول؟ أهي (غلطة) ولكن متى ستنتهي وأرى الحياة والشوارع والنساء والمطر؟ وحدي فعلاً ، حتى الذباب اختفى عن هذا الجزء الدموي من الأرض .

كيف يمكن للنسيان أن يشطرني نصفين؟ لقد أثمر الجنون والمرض ، صارا يأخذان شكلاً غريباً يرسخ في جذوري ، غدوت أقنع بالعيش والبقاء كما أنا ، قلت لها (يا مولاتي أحبك جداً ، ساعديني) وأيقنتُ يومها بأني بدأت أتجزأ إلى شظايا انسان . . كانت «عواطف» تضحك مني ، وبرغم ذلك لم أمد يدي إلى (عنقها)

أتخلّص منها .

أين كان ذلك كله؟

في هذه الدار المنسية ، يمر بها الناس ، لا يشمّون فيها رائحة الذعر ولا يسمعون عواء النفوس ، منظرها لا يوحي بشيء سوى ما يوحيه أي بيت مهدَّم مهجور ، تاريخ يمتد منذ الطفولة ، تلك هي الذاكرة ، ينتهي كل شيء مع هذا الصمت ، في (قبو) ليس من باب يدلّ عليه ولا من أثر يشير إليه ، الخراب الذي لا تفسير له ، حيث يبدأ الفجر ثانية ، لا ندري به ولا نرى بلابله أو شياطينه الجميلة ، ما نسمعه يتكرر شهراً بعد شهر :

ـ اسمك؟ شغلك؟ عمرك؟

ـ سلمان يعقوب ، موظف ، ٣٧ سنة .

ـ كم فات على مجيئك إلى هنا؟

ـ لا أدري والله . . لكنها سنوات .

ـ من الذي حقق معك؟

ـ لا أحد ، لم يكلّمني بشر سوى عبد الباري .

ـ كيف؟

ـ هذا شيء لا أعرفه .

كم سنة تقريباً؟

ـ الأوراق بين يديك ، أدري أنها أكثر من تسعة أعوام .

لا أدري ، الغرفة خالية من أي شيء ، خالية من الليل ومن النهار ، كيف أعرف؟ انتم الحكومة ، انتم أدرى بالزمن الذي بقيت ، هي

الكلمات نفسها ، عمرك؟ شغلك؟ اسمك؟

والغرفة ما زالت خالية إلاّ (منها) تلك السيِّدة المتسرِّبة في دمي ، الحب الغريب الذي يشعّ من باطن العتمة ، اسمي سلمان يعقوب ، أنا ابن الكلب الذي تمزقونه كل ليلة ، أيقنت بأني لا أعرف شيئاً ، سوى قتل نفسي ، شغلي؟ أنتم أخذتموني من دمي ولحمي ومن عروقي وأنسجة رأسي ، دخلتم الوزارة أمام الناس ، جرجرتموني كما الخروف ، أتذكر صراخكم : هذا هو الثالث الذي كان هناك في بيت حسون الباز ، ماذا بقي عندكم من أسئلة؟ لا يمكن لإنسان مثلي أن يفهم كل شيء مرة واحدة ، برغم ذلك ــ شكراً أيها الربّ ــ مازلت أشمّ رائحة البحر ، تتسرب في دمي ، عطر زقاقنا القديم ، تغطّي هلعي وتساعدني على البقاء سنة إثر سنة . .

عمري كما أخبرتكم ٣٧ سنة ، أخذتم منه تسعة أعوام ، لنجمع ونطرح معاً ، ونرى كم أبقيتم من رحيق في عمري .

*

لم أعرف مصير عبد الباري .

أربعة أيام مرّت ، ولا من خبر أو علامة تشير إليه ، أعرف أنهم سيقطعون عنقي وربما يقطعون أوردتي كلها اذا ما تجرّأت على السؤال أو بكيت عليه ، مسحت بأصابعي على صورة «عواطف» : أي حزن عظيم أن نختفي عن الحياة هكذا دون أن نحقّق أيّ حلم ولا أي رجاء في هذه الأرض الملغومة بالقساة والساسة البلهاء؟

انقطع اليوم الرابع ، وأنا أحترق في ذاك السرداب المغلق ، دبق يشبه الدبس يتسلل نحو ثيابي ، أتبوّل في (سطل) من البلاستك وأصغي إلى (نغم) يشبه معركة بين حمامتين ، يمكنني التلاعب كيف أشاء مع أي نغم أريد ، ما دام الحارس ــ والحمد لله ــ لا يعترض على أي لحن أختاره مع (بولتي) أو مع ما يفعله سواي من المرميين في ذلك الدهليز المنسي من شعاب بغداد .

هل تراني ذكرتُ كل شيء؟ عند سرير نومي ترين حذائي ، لم أستعمله منذ شهور ، أي والله ، منذ شهور جدّ بعيدة ، ليس من مكان أمشي فيه ، وإن مشيت ، أين تراني سأذهب؟ الغرفة يا سيدتي ليس فيها من مكان حتى لقرد تائه ، هددني الحارس أن أمنع نفسي من العيش في أوهامي ، منعني من أشياء كثيرة جداً ، قلت له مرة : من تكون؟ بعدها لا أذكر ما جرى ، لكنني أشكو من صداع رهيب يمسكني منذ أيام لا أدري حسابها . . قلت له من أنت؟ من تكون حتى تمنعني من الكلام ، هُب ، وانقلبت غرفة نومي إلى سفينة !

فجأة ، وأنا أتبوّل حزني ، شعرتُ بالخجل وأنا أرى «عواطف» تنظر صوبي ، لذلك أخفيتُ عورتي خلف لباسي ، وبسرعة رأيت نفسي أجلس كما التلاميذ ، أعتذر منها وأعود اليها عساها تغفر لي حماقتي .

ترى ، هل تدري هذه السيدة الحسناء كمية ما أعرفه عنها؟ أسرارها معي وطقوسها الليلية أحفظها عن ظهر قلب ، ليس من شيء تحت ثيابها إلاّ وأعرف شكله وزواياه ، بل يمكنني ــ بعد هذه السنوات

الطوال من اعترافات عبد الباري وهلوساته ــ أن أخبرها كم مرة زعلت منه وكم مرة رفضته وكم مرة ذبلت تحت عنفوانه ، بل سأعرف ــ بقليل من الصبر ــ كم مسامة هناك في جلدها وكيف يكون صوتها ولهاثها إذا ما طال الليل في ذاك الفراش الطائر الذي يسمونه «ساحل البحر» .

ساحل البحر؟ أجل ، ليس من شيء أكثر متعة وأنتَ تغرق في الحب قرب أمواج البحر ، وما دام البحر هكذا بعيداً ولا يمكنه أن يأتي أبداً ، فقد ذهبا إليه ــ عبد الباري و«عواطف» ــ على فراش مجنون يطير صوب ساحل البحر وينساهما هناك ساعة من الزمن أو ساعتين حتى ينقطع اللهاث وتنتهي الرحلة العجائبية قرب البحر .

إنني أصحو ، من فرط حنيني ودهشتي أصحو ، طال الوقت وأنا أدغدغ بارات بلا خمور وبواخر دون أشرعة ، من فرط اللوعة أصحو ، من فرط الفرح الذي يغمرني أصحو ، من أين يجيء هذا النسيم الهادىء الذكي؟ من أين تأتي رائحة الشيكولاته ، تدخل كل عروقي؟ أشهق بالحب الذي أسمعه وحدي ، ربما كنت أبكي ، طال الوقت بي وأنا أقفز من محطة إلى خطأ ومن سرداب رطب إلى بار عند نهايات المحيط الهندي ، أقفز من جبل إلى جبل ، من أنثى إلى أنثى ، ومن دمعة هنا خلف نبض القلب إلى دمعة ترفض أن أراها ، كم مرّ على جسدي من زمن فارغ دون معنى؟ كم فات على هذا الجسد المسكين وهو ينبض بالبكاء النبيّ؟ البكاء الذي مسَّد التراب والجدران والحشرات الطينية التي صارت صديقتي؟ كم؟

في الصباح الخامس بعد غياب عبد الباري ، أخرجوني من ذاك الدهليز إلى غرفة على سطح الأرض ، يتسرَّب إليها بعض من ضوء الشمس .

لم أفهم سرّ هذا النعيم الذي غمروني به ، لم أسأل طبعاً ، لم أفتح فمي حتى سمعت ذاك الصوت يقول من خلف الباب :

ــ دعه يغسل ويحلق لحيته ، لا أُريد أن يضربه أحد ، إذا أراد أن يقرأ أعطه بعض المجلات القديمة .

هكذا مرة واحدة ، أغسل السواد عن وجهي وأحلق هذا الورم الكثيف الذي يمتد فوق جلدي ! ! مرة واحدة ، دون أن يضربني أحد ، بل وأقرأ المجلات أيضاً؟ أيُّ نعيم يا ربي؟ كيف أصدِّق بعد هذه السنوات القبيحة أن بصيصاً من الرحمة جاء ليشرق اليوم فوقي؟

وعبد الباري؟ ماذا حلَّ به؟

هل أملك الشجاعة للسؤال عنه؟ لن يضربني أحد بعد اليوم ، لماذا لا أسأل عن عبد الباري؟ مددت يدي إلى (بيجامتي) أخرجتُ («عواطف») من جيبي ، لا أدري ماذا سيفعل إذا أعادوه إلى ذاك الدهليز ولم يعثر على (زوجته) الملصوقة فوق الإسمنت منذ ثلاثة الآف ليلة وأكثر؟

مسّني تأنيب الضمير وأنا أنظر إلى صورتها ، إنني أسرق أموال غيري ، بل وأقرب الناس لي في هذه المحنة الأبدية :

ــ ياللرعب ، أتراها ، حياتي ، ستنتهي في هذا الجحر الحيواني الرهيب؟

كـلاً ، لا أصـدّق ذلك ، أنا إنسـان بريء ، لا شـأن لي بأحـد ، والسياسة لم أكن في طريقها أبداً ، ولم أحتك يوماً برجالاتها ، محض خطأ قـاتل أنني كنت في بيت (حسون الباز) ، حتى أنني لم أجلس معهم ، بل انتظرتهم في المقهى أكثر من ساعة ، ولما ضجرت ذهبت إلى حسون أسأل عن سبب غيابهم .

*

مجرد سؤال ، أخذ مني حتى الليلة ما يزيد على تسعة أعوام ، بل ، تسعة قرون من الحروب والغناء وكسر العظام والرغبات المخنوقة والضرب والضحك والشتائم و . . . صورتها المعلّقة فوق أعلى قمم الخيال .

ـ إذا كنت أنا البريء ، أقطع في مكان كهذا بقية عمري ، فماذا تراهم فعلوا مع حسون الباز وبقية الشلّة؟

لا أريد أن أفكر في جحيم أكبر من حجم رعبي ـ غلبوك يا عبد الباري وأنتَ القوي الذي تماسك منذ الأزل ، غلبوك يا صديقي المسكين ـ لا أريد أن أنظر إلى الغد الغامض المخيف (يكفيني أن هذا المكان أفضل من ذاك السرداب الدامس الرطب) .

ـ سلمان يعقوب .

أجل ، هو اسمي ، أسمعه يتكرر خلف الباب ، أتحسَّس كل شيء بحاسة لا يمكنها أن تخطىء في جُب كهذا ، هناك من يمسك أوراقاً يكتب ويقرأ فيها ، أوراق خشنة وأصابع أكثر منها خشونة ، حنجرة

غليظة راح سوطها يشق نبض قلبي وأنا أنتظر ، أسأل نفسي : ماذا يدور خلف الباب؟ لماذا يتكرر اسمي بينهم؟ يا ربي ، عساها (نعمة) تهبط ثانية من السماء أنهم يكتشفون براءتي بعد هذه السنوات المحروقة من شبابي :

ــ افتح الباب .

كان قلبي يسكت (افتح الباب أيها الحارس الغبي ، افتحه بسرعة ، مهما كانت النكبات ، افتحه ، كيف يأتي شكل الموت ، افتحه ، افتح الباب أيها المغفل) لم تكن لهجة ضرب أو خطأ في الحروف ، أنا سلمان يعقوب ، والباب الذي يقفون خلفه باب سجني ، أعني الباب الذي سيفتح الآن هو بابي أنا ، والأوراق الخشنة فيها ما يخصّني أنا وحدي ، مربع هو المكان؟ كلا ، الشكل بليد أبله ، لا يمكن لإنسان سويّ أن يفكّر فيه ، الشكل دائريٌّ ربما ، لكن السقف مستطيل ، والطعام الذي ينزلق من تحت الباب لا يوحي ــ اذا ما توزَّع على غرف أخرى ــ أن البقعة المظلمة التي قضينا فيها أحلى أيام شبابنا ، يمكنها أن تكون مدوَّرة أو مثلّثة ، كذلك لا أظنها على شكل مربع ولا مستطيل ، ما نحن فيه محض هندسة مريضة فرضها عقل مخبول مدنس بالحقد ومخلوط بالقسوة والبلاهة معاً .

حتى هنا ، في هذه البقعة الوسخة الباكية ، المدفونة في النسيان ، أراها معي ، ألمسها ، أدغدغ كل شبر منها ، كأني على موعد مع هذا الشبح العجيب الذي تلبس ثيابه ، يطاردني كل حرف من اسمها وأغرق في رائحة لم تفرزها امرأة سواها . . . «عواطف» ، أليس من

حقي أن أقتل هذه الذكرى؟ الرائحة التي تعاندني وتنهش قلبي؟ لا أريد أن تجرَّني رائحتها إلى الرضوخ ، هذا الحب الغريب صار سجّاني وفيه رأيت إنساناً منشطراً يحاربني ، يقتلني ببطء وحشيٍّ لذيذ .

الموت يتأصَّل في العروق والممرات اللحميَّة ، في مسارب الشهيق وشبابيك الجسد ، إنه يقنع بالحياة ، وقد صار لها معنى آخر ، الموت ، وحده المعنى الذي صار يأخذ حجماً حقيقياً في عرض البيت وطوله ، فها هو الليل ، ثانية يجيء ، كما في كل مرة ، بعد غروب الشمس ، ها هو يرى رجلاً يحمل فأساً وسكاكين وهراوات ، ربما كان بحوزته علبة سكاير وعلى ملامحه أعنف حالات الحزن والقهر ، يجرّ خلفه جثة ، ما إن يحدِّق في عينيها وطول جسدها حتى يشعر بالمرارة والخوف .

بيت شاسع مهجور ، يغطّيه الليل ، ليس من أحد فيه سوى صرير مفاصل أبوابه ورائحة الماضي ، يشمّها من وراء الجدران ، من باطن تربته ، من أوراق أعشابه ومن شجر الصبير الذي يلفُّ ممرات الحديقة كلها ، خلسة تمر في عروقه كل ذرة من ذراتها ، من نكهة عطرها الذي يسبِّب له عطاساً ما ينفك يزاحمه حتى يبكيه ، رائحة السيسبان وزهور الجوري والقداح ، رائحة الماضي ، إنه يعرفها ، تسرَّبت منه إلى جذوع النخيل ، إلى خلايا التربة ، إلى أعصاب الجذور ، ومنها ثانية إليه ، حتى ليغمى عليه من فرط زفيرها العبق الخانق الغريب ، وأيضاً ، إلى هذا القلب الذي طال عليه الوقت كي يبرد من آلامه .

ما كان في البيت من شيء يخصّه حقاً ، لقد أخطأ في النزول ضيفاً على ذكريات لا تعنيه ، البيت برغم كل ما فيه من أجهزة ناعمة جميلة للتعذيب ، ما زال غريباً عليه ، ليس فيه من شيء يعنيه سوى تلك الرائحة ، وكان يفهم ــ كنت أفهم ــ أنني ، أنه طريدها حتى آخر العمر .

هبَّ قلبي يسابق الرياح ، لا يدري أين يمضي وإلى أي زقاق يسلّم نبضه ، مفتوح أمام ضلوعي الليل والنهار والشوارع والدموع ، تسعة أعوام من الظلام والخوف والجفاف ، تسع سنوات وأربعة شهور في قبو دامس لا منافذ فيه ولا رجاء ، ثلاثة آلاف ساعة وفوقها عنقود من الدم والجلد والبصاق وأربعمائة سوط .

أسود كان اللون الذي يغطّي الغرفة ، عند آخر انحراف فيها ، بقعة من رماد راسب ، على جدار تشقق منه ما يقرب من نصف متر ، صار لونه أصفر وبان منه سلك كهربائي عتيق يشبه ذيل أفعى ، عند جوف الشق بدايات بيت عنكبوتيّ ، متروك ، لكن الحشرة ما زالت في الجانب المنكسر من الباب تبدأ في انشاء بيت آخر ، أما أنا فقد تركت يدي تحت رأسي أفكر في ماض ليس من أمل في الرجوع اليه ، ضاع مني حتى الآن كل شيء ، ولم أعُد أملك غير اسمي وليته يباع ، إذن لبعته وأشمّ بثمنه رائحة الشيكولاته والعطر الهادىء البسيط ، أما زال يباع عطرها في الشوارع والأسواق؟

خرجتُ إلى بغداد ، أبكيها وأشكو غدرها ونسيانها ، أنا البريء الذي خرّبوه في دهاليز التعذيب ، قلت لها : من يصدّق أن في

سراديبك الجوّانيَّة ذاك الرعب كله؟ قشرتك التي أراها الآن لا تشبه خلجان النهش والقطع والهلاك البطيء الذي يدور هناك أسفل عجيزتك المتورِّمة يا بغداد ، حتى عبد الباري قتلوه وربما رموه في صناديق الموت المختومة بالعطور السوداء .

- أحقاً قتلوه؟ لا أدري إن كان عبد الباري قد عاد إلى تلك الغرفة أم أنه ما زال مشلولاً؟ عيني عليك أيها المسكين الذي ما زال هناك بين الأنياب والشتائم .

وقبل أن أمسح آخر دمعة مرَّت على شاربي ، رحت أفكِّر في «عواطف» زوجة عبد الباري ، المرأة المقدسة التي (أحببناها) معاً ، طوال أعوام الخوف ، مددت يدي إلى الفراغ في الشارع كأنني أمدها إلى جسد حقيقي راح يمشي أمامي ، يغازلني وأمشي خلفه ، حتى تذكرت - فجأة - كم هو لذيذ طعم الحرية وأنا أبكي بهدوء بين الأشجار والنساء والسيّارات وباعة السجاير .

نسيتُ في لحظة من الزمن شكل الفلوس التي نشتري بها كل شيء .

وقفت عند (صبّي) يبيع السجاير ، وفوراً ، تذكرت أنهم أعادوا ملابسي وذكرياتي وكذلك أعطوني شكل الماضي الذي دخلت به إلى دهليزهم السفاح ، هناك في أحد الجيوب عثرت على سبعة دنانير وثلاثة دراهم .

- طعم السيجارة في السجن أجمل .

رميت السيجارة بعد أن (شفطتُ) خلاياها ورحيقها ودخانها

الأميركي المغمَّس بالنعناع ، كان لا بد من الذهاب فوراً إلى بيتي وعائلتي ، لكنني لم أشبع من بغداد ، ما زال بيني وبينها عتاب عظيم ، رميت نفسي في (باب الشيخ) رأيت نصفي الثاني يدخل في شعاب (الصَدرية) لا أدري كيف وصلتُ إلى (قمبر علي) ولماذا يسخر أطفالها مني؟ بكيت عند (الشيخ صندل) حتى تسلّمني (حي الأكراد) خطوة ثانية نحو الجنوب ، أشرب الشاي في (الكولات) ثم أقرر العودة إلى صباي فوراً . . لم أعثر على بغداد التي أعرفها ، ولا البشر الذين كنت بينهم ذات يوم ، لا أدري ماذا تغيّر فيها ، لم أعد أرى (بغدادي) التي تركتها منذ تسعة أعوام وألف جريمة .

*

احتلت «عواطف» سفوحي وبكتريا دمي ، أنظر إلى الشحادين في شارع الجمهورية ، كانوا أجمل وأكثر تهذيباً ، علمتهم السنوات أن الأناقة تأتي بأموال أكبر ، وأعرف عنوانها طبعاً ، هل أذهب وأخبرها بما حلّ بزوجها؟ هل أقول (كم أحبَّها وكم كان بحاجة إليها)؟ بركة من دم ، أحسها تحت جلدي ، ليس من السهل أن أتخلّص من هذا الدم الفاسد الذي فرضوه على حياتي ، سأسأل نفسي : كم أحتاج من وقت حتى يهدأ هذا الغليان ، ومتى سيكفّ سريري عن الكوابيس ، ومن أين أقبض على المعجزة حتى أعود ذاك الإنسان السويّ الذي قطفوا براءته على حين نباح مسعور؟

لا أحد يعلم بخروجي من الموت ، عثرتُ على أب مات منذ

عامين ، بكيته بهدوء لا يناسب طوله وطيبته ، عثرت على أُخت تزوَّجت من حمار ينهق ليل نهار ويشرب الخمرة في النهار والليل ، قررت أن أذبحه في أقرب فرصة ، عثرت على جوع وغدد درقية في رقبة (أُمي) كما عثرت على بكاء لم ينقطع ثلاثة أيام ، وعند الفجر الرابع غادرتنا أمي وهي تقول :

- الحمد لله أنني رأيتك قبل موتي .

قالت :

- ما كنا نصدِّق أنك ما زلت حياً ، قلت لهم مئات المرات : إذا مات سلمان أنا من يخبركم بذلك .

طبعتُ قبلة على خدها و(فوطتها) البيضاء ، أسمع نباحاً يأتي من دهليزي ، أسمع الكلاب تضحك من نهاية أمي ، لهذا رميتُ بقبلة ثانية وثالثة على رأسها وأنفها وأصابعها حتى سكت النباح ، ولم يسكت غضبي .

بسرعة اختفت تلك الأم بين القبور ، قلت لها : وداعاً أيتها القديسة التي قتلوها بغيابي عنها ، قررت - كما يفعل الأغبياء - أن أنتقم من جبل القسوة ومن مسلخ الكلاب المسعورة ، هكذا اختفى نقائي وامَّحت طبيعتي التي كنت أعرفها قبل اعتقالي . . . لم يبق من شيء نظيف حولي سوى رؤية «عواطف» عساها تخلّصني من سوادي وعتمة روحي ، إنني أتسلّق نفسي إلى حيث أنحدر ، لا شيء لي في آخر المحنة ، سوى الصبر أو الهلاك ، وهما معاً لا بد منهما ولست أملك اختيار بديل لهما ، إنما يتأجَّل موتي ، هل اندرست أيام الحب

والمتع الهادرة العنيفة؟ ماذا جرى في بحر تسع سنوات من الأسف والندم والعواء والضرب وبطش الأصابع التي لا حياء فيها؟ !

أكثر من أسبوع مرّ على حريتي وانعتاقي .

لن أرى صديقاً بعد اليوم ، رحم الله من مات منهم تحت أجهزة القتل ، عبد الباري ، عزام اللذيذ الذي حاول الهروب فزاحمه الرصاص ، حسون الباز أكبرنا عقلاً وأكثرنا صمتاً ، وذاك الجزء الأبيض مني ، عندما تذبل الزهرة ، لا نفع من المطر ولا من الجبل الذي تسلقته إبان عنفوانها ، خفيّ ما في الأرض - هذه الأرض - لا يظهر منها غير قشرة كاذبة ، تلفزيونات وأخبار مفبركة ، أزياء وعطور مستوردة وآخر صرعة من أفلام الذبح البشري ، طائرات تعبر «البيغال» خيرُ ما نزّيف به الحياة ، تاركين وراء ظهورنا أولئك القتلى ، يصرخون وحدهم تحت سطح المدينة ، لا أحد يسمعهم وليس من بشريّ يسأل عنهم .

مرعوب ، وأنا أقطع أيامي بحرية لم أتمتع بها منذ سنين ، لا شيء ينقصني غير ابتسامة فلتت من شفتي ولن تعود مطلقاً إلى ملامحي ، لا بد من عمل عظيم يسحبني من ذاك الجانب السفلي الغامض البعيد من ذاكرتي ، أنا مسؤول عن عائلة تفككت في غيابي ، لم يبق منها غير شهيق تائه هنا ، وحمار يشرب العرق ويضرب أُختي . . . حسناً ، لا بد من شيء أشغل به ضميري لئلاً يؤنّبني ويحرقني أكثر مما بي من حروق .

تحركتُ - بشكل غريزي - إلى بيت «عواطف» ، لم أُفكر بما

سأقول ، لا أدري كيف وصلت بساقي إلى بيتها ، تماماً كما وصفه عبد الباري ، ثالث بيت بعد فرن الصمون ، الزقاق المخلوط بالحنّاء ورائحة الحرمل ، باب الحديقة أسود ، والباب الخشبي مزخرف بأجراس كاذبة لا رنين فيها ، لا أطفال هناك في البيت غير بنت كانت في شهرها الثالث عندما أخذوه ، غريب أمر عبد الباري ، لم ينطق بالكثير عن «رشا» ابنته التي جاءت للدنيا في وقت عسير ، لا بد أنها اليوم قرب العاشرة من العمر .

لا أدري من الذي مدّ أصابعه - نيابة عني - وراح يطرق الباب ، مرة ، مرتين ، والباب الخشبي لا يتحرك ، ليس من صوت في العالم كله ، سوى قشعريرة قلبي ، كانت الساعة هي السادسة مساءً والضوء يملأ نصف البيت ، وليس من أحد يفتح الباب ، رأيت امرأة في الخمسين تنظر صوبي من خلف الحائط الذي يلاصق بيت «عواطف» ، ولما طال وقوفي قرب الباب سمعتها تقول :

- أمُّ رشا ليست في البيت ، ربما ترجع بعد ساعتين ، مفتاح البيت عندي ، هل تحب أن نخبرها بشيء؟

قلت بسرعة :

- أنا (ممنون) منك ، سأعود غداً في هذا الوقت إن شاء الله .

لكن السيدة من وراَء الحائط لم تتركني وشأني ، بل راحت تزحف مثل أفعى وهي تلتصق بحائط بيتها :

- ألا نقول لها من أنت؟ سوف (تزعل) مني إذا لم أخبرها بشيء عنك .

أصابني شيء من الهلع لم أفهم أسبابه ، قلت بإصرار أحمق :

- لا ، شكراً ، سأمر عليها غداً ، قولي لها إنني سأعود غداً ، وهذا يكفي .

ومشيت بسرعة بلهاء ، أهرب من عينيها ومن شكوكها التي حولتني إلى فأر خائف ، تذكرت سجّاني فوراً ، لا أدري لماذا راح يأخذ شكل تلك الجارة التي مطّت شفتيها وهي تخترق ثيابي من مسافة تزيد على عشرين متراً وأنا أتحرك نحو (فرن) الصمون أبحث عن مخبأ بعيد عنها .

*

أهرب طائعاً ، أختار سجني بنفسي ، أبحث عن شيء لا أعرفه ، مجرد أن يبتعد عني طيفها العنيد ، يرتبك العالم حولي ، لا أدري ، خال من اليقين في أمر نفسي ، إنهم يسيطرون تماماً على نخاعي وحياتي وباطني :

- لماذا امتنعتَ عن الطعام؟ لقد احترمنا أوجاعكَ حتى الآن .

- لا أشعر بحاجة إلى شيء ، الطعام يطيل العمر وأنا لستُ بحاجة إلى عمري .

- إخرس ، ستأكل طعامك فوراً .

- طعامكم لذيذ ، إنه يطيل العمر فعلاً ، وأنا ما عدتُ بحاجة إلى مزيد من سنوات الفراغ والصمت .

أسمعه ينزل في قراري البعيد جداً :

- لماذا نتركه يتفلسف؟

- إسمع ، أيها الحقير ، ستأكل يعني ستأكل ، مفهموم؟ من تظن نفسك؟ لو كنا نريد بكَ شراً لكنت الآن مثل جرذ أسحقه بحذائي .

- شكراً سادتي ، شكراً لأحذيتكم ، أنا بخير ، أنا بخير .

نسيتُ أن أسأل نفسي عن مصير (عبد الباري) وماذا حلّ به؟ هل عاد إلى بيته؟ طبعاً لا ، هل قتلوه؟ هل مات تلك الليلة التي أخذوه فيها من غرفتنا؟ لم يعد إليها طوال أربعة أيام قطعتها وحدي في الرعب والوحشة ودخان السجاير ومناجاة زوجته المعلّقة على الجدار؟ لماذا لا أسأل نفسي قبل رؤية «عواطف» عما سأقوله؟ تلك محنة من نوع مختلف أزجّ فيها نفسي أنا الخارج تواً من سراديب الضرب والسياط الأسمنتية ، لا بد من صواب واحد في الحياة لئلاّ أخسر بقية عمري في الأخطاء التي لا نوافذ بعدها ولا هواء نقياً أشمُّه وأحمد الله عليه .

- أنتَ يعقوب سلمان؟

- عفواً ، أنا سلمان يعقوب .

- المهم ، أنت من جماعة حسون الباز؟ إنطق بسرعة ، ماذا تعرف عنه؟ إذا لم يكن في بيته (مثلاً) أين يمكن العثور عليه؟ الباز عشيرة أم اسم؟ ماذا دهاك؟ تكلم .

كل البيوت تشبه البيت هذا ، مزحومة بالجرذان ، بالهسيس المرعوب الذي يفتك بالقلب ، بيوت مخبأة خلف البشر ، ربما بينهم ، دبيب نمل يزحف في الثنايا والعروق كلها . . . من جاء بي إلى هنا؟ أي حظ مسحور رماني إلى الصراخ؟ بنت عذراء ، بنت

داعرة ، بنت قديسة ، واحدة عراقية وأخرى شقراء ، سمراء ، حنطية تمزّق ثيابها بسرعة ، أنا سلمان يعقوب ، لا أعرف أي شيء عن أي شيء ، صدقوني ، لا أدري مَن وعلى مَن ولأجل مَن جرى كل الذي جرى ، ماذا دهاكم أنتم؟

– مرَّت عليه تسعة أعوام ، هكذا .

– معقول؟ سمعت أن الجسد البشري لا يحتمل الإنفرادي أكثر من عشرة أيام فقط .

*

أجلس في المقهى ، عند رأس (بني سعيد) بين قرقرة النراجيل ودخان السجائر وجوع البطون ، أنظر إلى جيش من الزبائن يحرك أصابعه في الهواء ويطرح النرد على خشب صقيل ، جيش من البشر يصرخ مع الفيش السود ينقلها من سطر إلى سطر ومن حفرة إلى حفرة بحرقة تشبه الرقص ، أريد أن أفهم هذه الحركات ، إنها أفضل وسيلة للخلاص من زحمة أفكاري ورداءة أيامي الجوف التي أخاف أن أحرّكها ، بل ، وأخاف من خرابها المخبَّأ في المجهول .

أحسد هذا النوع المشلول الخانع من البشر ، لم يدخل دهليزاً ولم يصفعه أحد سوى الفراغ الكبير الذي يمتد من الطفولة إلى الموت . . أريد رؤية «عواطف» من أجل أن يتبخر هذا الفراغ السفاح الذي يجرجرني هنا وهناك دون أي معنى .

«عواطف» ، تسع سنوات وهي أمام عيني ، رأت جروحي

ودموعي وأنا أنام عن هلع لا أستحقه أبداً ، معلّقة - صامتة - بيني وبين عبد الباري على جدار أصم تمكنتْ وحدها من تحريك رعونته وصمته ، أريد أن أتذكر :

كيف لصقنا صورتها على حائط السجن؟ كانت الصورة تسقط بين أسبوع وآخر ، لكنها تعود فوراً إلى مكانها ونبقى أمامها نحكي عن أوسخ عذاب في الكون ، بيني وبين عبد الباري ملامح تشترك في أحزانها ولوعتها ، حتى كدنا نتشابه أيضاً في جرسها ونبرتها ، بل وبهذا الخيط السرطاني المرعوب الذي يسمعه مني وأسمعه منه بعد كل كلمة وكل حرف ننطق به ، صار عبد الباري من نسيجي أنا وابتلعني نسيجه سنة بعد سنة ، صرنا نمرض في وقت واحد ونشفى في وقت واحد ، ونسينا - معاً - كيف نفسِّر هذا (العجب) الذي يفكر فيه عبد الباري ويراني أقوله قبل أن يخبرني به .

كل شيء في رأسي يمضي فوراً إلى شعاب جمجمته ، حتى اشتهائي زوجته وأنا أنظر إلى صورتها ، كان يدري به ، بل يساعدني على قضاء غرائزي بأصابع تمتد إلى مساماتها على غفلة من الليل والحراس ، على غفلة من القهر المستحيل الذي نعيشه في تلك البقعة من بغداد التحتانية .

إنه يلبس هواجسي ومؤامرات قلبي ، وأنا أُعاني ما يعانيه ، أُفكِّر بما يفكر فيه ، أن أصبح بمستوى جنونه وفرط إحساسه ، أرتدي غضاريف جسمه ، أحرِّكها صوب ما يحرِّكها ، يبكي مثل بكائي وأضحك مثل ضحكه ، يلبس إنسانيتي وأنزع نبض قلبه ، كيف صبرنا

على ذلك كله؟ ماذا حلّ بنا؟ لا ندري ، صرنا كما تشاء الغرفة ، صرنا حالة من حالات المكان ، مع كمية ليست قليلة من الدموع التي تسقط فجأة .

في ليلة أعادوه (مسحولاً) من شدَّة الضرب ، لم يتمكن من فتح فمه واكتفى بنظرة عميقة إلى عيني ، ثم أسعفه النوم أكثر من يومين ، ما أن استيقظ حتى رأى دموعي تغطّي ثيابه ولحمه المجروح . . في تلك الساعة سمعته يقول :

– إذا قتلوني يا سلمان ، أرجوكَ أن تعتني بعائلتي ، إنهم أمانة في يديك ، رشا ابنتي و«عواطف» زوجتي ، إذا ذبحني هؤلاء ، عليك أن . . .

أتذكّر أنني مسحتُ على مساماته وقلت لحظتها وأنا أمدّ أصابعي على شفتيه :

– اسكت يا عبد الباري ، اسكت ، إذا قتلوك لا سمح الله ، لا أظنهم سيتركونني أسرح وأمرح وأنا الشاهد الوحيد على الجريمة . . . اسكت يا عبد الباري بارك الله فيك .

والآن .

ها أنا خارج ذاك المسلخ الأبديّ ، ماذا سأفعل وأنا الشاهد الحقيقي على مجازرهم؟ هل يمكنني – حتى – إنقاذ حلم واحد يستجير هناك بين آلات التعذيب التي استوردوها؟ والله لا يمكنني انقاذ (بزون)(*) أخطأ الطريق ودخل سهواً إلى سراديبهم :

(*) بزون : قطة .

- أرجوكَ يا سلمان أن تعتني بعائلتي .

وكيف أفعل ذلك يا عبد الباري؟ هل أتزوجها مثلاً؟ هل أعمل ليل نهار حتى أشتري ما يكفيني ويكفي رشا و«عواطف»؟ ماذا تراني سأفعل يا عبد الباري وأنا الخارج - مثلك - من جحيم أنتَ خير من يعرفه؟ جحيم شلّني ورماني أقرب شبهاً بكلب عجوز على قارعة الطريق ، ماذا سأفعل بالله يا عبد الباري؟ !

*

أرى المكان من داخل إحدى الغرف ، كنت أحلم ببيت معزول ، كل شيء فيه بلون وردي ، أتمكّن أن أكنسه وأطرد عنه النمل والقمل والذباب والبعوض والعقارب والجرذان ، كل شيء يتفسخ حتى الهواء ، بيت موبوء بالدخلاءمن القتلى ، أتكهن أن خفايا هذا المكان محشوَّة بجثث القطط والكلاب التائهة ، هنا فخذ ما زال طرياً ، وهناك جيوش من الديدان والوساوس وبحور من الدم المتخثر .

أتمنّى لو يتمكن إنسان ما ، من الدخول إلى شراك عقلي وأنسجتي ، وأوردتي كلها ، يدخل في ممرات شراييني ، يلبس جلدي وينقذني من شهيقي :

- ماذا به الآن؟

- طبيب الحالة قال إن علينا نقله إلى مكان أفضل .

- هل يشكو من شيء؟

- مرَّت عليه شهور دون أن يتغيّر أي شيء .

- إنهم يكفرون بنا ، ويستحقون التأديب ، اتركوه .
- لكنه قد يموت .
- إلى جهنَّم ، على أن لا نموت نحن ، أليس كذلك؟
- نعم سيدي ، أنتَ على حق .

أقرأ خلف حاجز موتي ، أسمع من وراء التراب والبكتريا والديدان ، أهجس صوتاً يدخل هذا البيت ، يدخل من سقوفه وتجاويفه ، يعلو ، أعلى من كل ما سمعت ، إنه (قد) يموت ، الله ، هل يمكن حقاً أن يأتي الموت في هذا المكان الموحش العنيد؟

ربما عافني وعيي في ساعة من الزمن ، ربما تخلّت عني نزاهتي أو تركتني إرادتي - وهل بقي منها أي شيء بعد هلاكي هناك؟ - لكن ، أن يتخلّى عني ضميري أو تنسحب مني طيبتي ، فذلك أعجب ما جرى . . . هكذا دفعة واحدة ، بغباء بعيد المدى ، فكَّرت أن أذهب إلى «عواطف» وأقول بأنني (زوجها) عبد الباري . . معقول؟؟ ولم لا؟ حتى إن كانت بعض ملامحي ستقول غير ذلك ، سأقول إن السنوات غيَّرتني والتعذيب سلخ الكثير من صفاتي ، وإن الهموم أكلتني وانتظارها سلب الكثير مني ، بهذا الشكل قد أحمي «عواطف» وابنتها من الجوع ، ثم أقنعها - بمرور الوقت - على أن أتزوَّجها تحت سنَّة الله ورسوله ، وإن شاءت فعلى (سُنة) من تشاء .

أدري أنها لن توافق - الآن - على الزواج مني ، لا سيما وأن مصير عبد الباري لم يكن تحت يدي ولم أعرف الحقيقة عما فعلوه يوم أخذوه من سردابنا المشترك الدامس .

هكذا يستريح ضميري ، ستكون «عواطف» تحت رعايتي فعلاً ، لن أعطي لليأس فرصة أن يتسلّل نحوها طوال حياتي معها ، سأكون لها الغطاء والرحمة والنعيم ، لا بد أن أعوِّضها عما فات سنوات الفراق ، هي وحدها من يستحق (مغامرة) بهذا الشكل الغرائبيّ المدهش ، ثم انني أحببتها حقاً طوال واحد وثمانين ألفاً من ساعات الوحشة والرعب وانتظار أكوام الضرب والشتائم والبصاق .

أجل ، كنت أرى هذا الحب يحكي نيابة عني ، يرغمني على الذهاب نحو بيتها ، ربما أمضي إليها فعلاً كما أخبرت جارتها الرعناء التي طاردتني بشكوكها ، لكن كيف ومن أين لي ، بل متى سأبدأ هذا (المشروع) الكهربائي القاتل؟ إنها امرأة ذكية ، لا أظنها تسمح لرجل غريب أن يدخل بيتها ويحتلّ مكانة زوجها بكلام مصنوع مزوَّر مهما جاء شكل المعلومات ونجاحها أو نسبة الحقائق فيها .

هل يكفي حقاً ما أعرفه؟ هل كان عبد الباري (ثملاً) بحبها ، ولذلك أعطاني حفنة أسرار (مفبركة) يشفي بها غليان غيابها المُهلك؟ لماذا أفترض - هكذا - أن ما عندي من جروح وأسرار وثيابَ منزوعة وآثار لهاث ووشم أفخاذ وأقمشة سوداء وسجائر ورغوة بيرة ، لم تكن كلها - ربما - من صنع خيال شهوانيٍّ مريض طال عليه غياب (المعشوق) فراح يهذي بكلام شهيّ جميل يوحي بالحقيقة دون أن يصل إليها؟ من يدري . . . لماذا أتورَّط في (لعبة) لم أحتكم إليها ولم أشارك فيها أبداً؟

لكن النتائج غادرتني ولم أعد أُفكِّر في لون مصيري .

صار المهم عندي ، أن (أقامر) بالوقت والأعصاب والذكاء والصبر ، بغية الحصول على زوجة عبد الباري ، مطمئن الضمير إلى أنني أريدُ الزواج منها بأسرع من لمح البصر ، وأن رغبة كهذه لن يحققها لي قول الحقيقة . . . كنت أشعر بحاجة دمويَّة إلى «عواطف» أن تأخذني إلى جنونها وأحضانها الدافئة المتوحِّشة ، طالما أخبرني عبد الباري بما كانت تفعله أيام الخريف وليالي الشتاء ، إنها - كما قال مئات المرات - لبوَة من شبق نافر لا يمكن أن يتكرَّر في العمر سوى مرة واحدة .

أُقنع نفسي بنفسي : أن ما أفعله لا شأن له بالحرام ، وأن الله سوف يحاسبني على (النيّة) الصافية في الزواج منها . . . أرى سيقاني تتحرَّك صوب بيتها ، ثمة عصب في الساق اليسرى يمنعني من الحركة ، ربما يريد أن أتمهّل وأسأل نفسي عما سأفعله في حياتي وحياة الناس ، لكن المقامرة كانت قد بدأت وصالة القمار فتحت أبوابها لهذا الزبون الممنوع الذي حاصرته الحياة أكثر من تسعة أعوام ، وغلّفته بالحنين والشوق والابتهال إلى نهد أو عنق أو فخذ أنثوي سيعطي ما بقي من العمر حتى يلثمه ويغرق فيه ، بل وسيبكي شبقاً عليه .

نظرتُ إلى وجهي في المرآة ، أُقارن بيني وبين عبد الباري ، مخلوقات الله تتشابه في كل شيء ، عينان وأنف وأذنان ورأس يحتوي البلاوي والمكر والدموع ، صحيح أن ثمة أكثر من اختلاف بين ملامحي وملامح زوجها ، لكن النكبات - هكذا سأخبرها - لا تترك

الانسان على حاله الأول أبداً .

أعرف أنها لن تصدّقني مطلقاً ، لكنني إذا ما جئْت على أدق وأخطر أسرارها - من يدري - قد يتسرَّب بعض الشك إلى أعماقها ، وأول الشك هو أول النجاح بالنسبة لي .

- والجيران؟ والأقارب؟ وأهل المحلَّة ، والدنيا بأسرها؟ والناس التي تعرف عبد الباري؟ بل الناس التي تعرفك أنتَ نفسك يا سلمان؟ ثم ، ثم الحكومة التي قتلته وأفرجت عنك ، وأولئك الذين يذبحون الرقاب وهم يدخنون؟

قلت لنفسي : لا يهمني أبداً ما سوف يقال عني ، المهم أنني أريد «عواطف» بأي ثمن ومهما كانت السبل التي ستأخذني اليها . . . تلك نهايتي وهي خير ما أختم به حياتي من حلاوة وتعويض عن أيام الموت والجفاف ، ثم انني سأكتب ورقة أقول فيها : «أعترف بأنك زوجتي يا «عواطف» على سنَّة الله ورسوله الأمين ، وإنني مستعدَ للزواج منك في الوقت الذي تشائين وتأمرين ، وإنني أعتذر عما أصابك منَ ضرر بسبب انتهاكي حياتك والادعاء بأنني زوجك السابق ، وليكن الله سبحانه هو الشاهد الأول والأخير على ما أقول» .

سوف أحفظ هذه الورقة في مكان أمين ، لئلا تظنني «عواطف» - بعد موتي أو غيابي أو قتلي أو أي حادث مفاجىء يصيبني - من ذاك النوع السافل الذي يغتصب الحق على غفلة من الطمأنينة والأمان .

ثم ، ما شأن الحكومة بالحب والزواج وهذا النوع من الأمور؟ لا أظنّهم يلاحقون (غرائزي) ما دامت هذه الغرائز لا تمنعهم من التخمة

في الطعام والمتع الكبرى ، بالعكس ، أنا مملوء باليقين : إنهم سعداء بما سأفعل ، المهم أن أكون خارج بيت السياسة أطول مسافة ممكنة .

أعطيتُ لنفسي مهلة يومين ، حتى أنتهي إلى هذا القرار الصراطي المخيف الممتع ، أجمع وأطرح الفوائد والخسارات والعقابات والعواقب ، وكلها تنتهي (معي) إلى تنفيذ تلك المغامرة اللذيذة العسيرة . .

– وهل من شيء أصعب من سنواتي التي أمضيتها في دهاليز الذل والضرب حتى أخاف من مغامرة بهذا اللون الساحر الجميل ؟

وماذا ستكون الخسارة؟ أن ترفضني مثلاً؟ أن تطردني أمام الجيران؟ كل ذلك وأكبر منه لا يساوي ليلة بل ساعة واحدة مع هذا الحلم الذي راودني تسعة أعوام ولم يتعب مني .

بدأت أثرثر مع نفسي ، في الشوارع والبيت والمقاهي ، في أزقة المحلة وشعابها ، بين القبور وخلف أعمدة الرشيد ، أقترب شبهاً بالمجانين وأنا أحاول أن أحفظ – عن ظهر قلب – ما سأكتبه وأخفيه حتى يحقق لي قدري ما أحلم فيه . . . أنا سلمان يعقوب ، أقرّ وأعترف بأن السيدة «عواطف» زوجتي ورفيقة عمري – أو ما بقي منه – وأنني تزوجتها بقلب خاشع مؤمن . .

*

ما هذا الهراء الذي أكرره في كل جزء من بغداد؟ حتى أن الناس صارت تلتفت وتهمس وتسأل عن هذا (المخبول) الذي يكلّم نفسه ،

يكفي ، هذا يكفي ، لا بد من قرار نهائي صارم لئلا يتناثر عقلي وأخسر كل شيء .

يزاحمني الحلم ، يمرُّ على غزواتي ومخيلتي ، ينهش بي ، يجرّني نحو الغربان وهي تمر على ثيابي تتسلّل في مساماتي وتهزأ من جبروتي (أيُّ حلم هذا؟) الضوء النقي الوحيد يأتي من عينيها ، يلفنّي هدوء صاخب وأنا أبتعد عن البشر ، عن المحلة وأزقتها ، عن جيراني وأهل شكوكي ، لا أريد أن أسمع أي شيء ، أنا خائف فعلاً .

بعد خمسة أيام من الاحتراق والتفكير بشأن «عواطف» رأيت جلدي وقد غلّفته بعض البقع الحمر ، هنا فوق الساق اليمنى ، هناك عند مكان القلب ، وثالثة في جزء سرّي من الجسد ، لم أفهم السبب ولم أذهب إلى طبيب ، بل تركت نفسي لنوم عميق صحوتُ منه على بقع أكثر وأكبر .

ما هذا يا ربي؟ حتى في أيام التعذيب الكبرى لم يحدث أن تشوّه جلدي بهذا الشكل الأرعن المخيف ، لم أتمكّن من إخفاء تلك البقع ، ذهبت إلى طبيب أعرفه من أيام الصبا ، أخبرني أن الأمر لا يستحق الخوف ولا الظنون ، وأنها لعبة أيام وينتهي كل شيء ، أعطاني مراهم وحبوباً وقال لي وهو يطبطب على مؤخرتي :

- أقترح عليك الزواج يا سلمان .

قلت له وأنا أبتسم :

- وما شأن هذا بهذا؟

كنت أشير (إليه) من طرف خفي ، وأنا أضحك بصوت خبيث ،

لكن الطبيب قال بسرعة وهو يخطو إلى التلفون الذي راح يرنُّ بقوة :

- إفعل ما أقول لك ، وسوف ترى ، لا أريدك أن تكون «العازب» الأبدي ، عمرك الآن . . .

وهل يمكنني الزواج ، إلاّ منها؟ لا أظنني أحتمل وجع القلب بعد هذه السنوات مع امرأة لا تفهمني ولا يمكنها الصبر على بقايا انسان ذبحته السجون الانفرادية ، لا أحد في الكون يسعف نبضي ويمسح البقع الحمر عن مساماتي غير «عواطف» .

هكذا أخدع نفسي .

أقطع الطريق صوب قناعاتي ، بكلام يشبه الحسم الذي يرفض أيَّ قرار سوى ما يقوله شبقي وما يبتغيه ذاك الكائن الذي أخفيته طوال عمري عن النساء .

- لو أن «عواطف» يمكنها الزواج مني فوراً ، لما التوى بي الدرب شمالاً وجنوباً إليها .

لهذا رأيت نفسي - بهدوء نبويّ - أقطع دربي إلى بيتها ثانية وأنا أخفي بين ضلوعي كمية كبيرة من معلومات الماضي ، بما أخبرني به (عبد الباري) . . . وقبل أن أطرق بابها ، شعرتُ أن رأسي يشبه دفتر الطفولة والتلمذة الذي كتبنا فيه أول ما سمعنا وأول ما قرأنا ، وصار ملصوقاً - هناك - في أعمق حفرة من بئر الروح ولم يعد من الممكن نسيان ذلك مطلقاً .

الفصل الثاني

«إذا شئتَ أن يقال عنك (كذَّاب) فما عليك سوى قول الحقيقة دائماً» .

لوغان سميث

مـا إن رأيت «عـواطف» ، حـتى خـسـرتُ كل شيء : ذاكـرتي وسطور أعـوامي مع زوجـها والـكلام الذي رسمتـه في مـخيّلتي مئات المرات ، تسلّلت معلوماتي من ثقب في جسدي وتسرَّبت مع الـهواء إلى الشوارع والأزقة والرياح الخفيفة ، رأيتها تفتح الباب دون خوف ، سواها سوف تسأل عمَّن أكون ، لكنهـا اقتربت من باب الحديقـة بعد أن فتـحت بابها الخشبي المزخرف بالأجراس ، وقبل أن تفتح فمـها ، كـان قلبي يسرع في نبضـه ولـم يترك لي فـرصـة أن أقف على قـدميَّ بشجاعة :

- أهلاً وسهلاً ، تفضّل ، هل من خدمة؟

رحت أحدِّق إلى غابات النخيل ، أتسلّق ذاك الكرب الشوكيّ إلى حيث أوشك على السقوط ، أترنّح كما السكارى قبل أن أقول :

- عفواً أم رشا ، سأعود في وقت آخر .

مـاذا تعني (في وقت آخـر) أيـهـا الأبله الذي لا بنطلون يحـمـيه ولا

ثوب يستر أفكاره الغبية؟ في وقت آخر؟ لماذا؟ ها أنتَ الآن أمام المقامرة العليا في حياتك كلها ، فهل رضيت أن تخسر كل شيء دون أن تلعب أبداً ، حتى البغل في أعلى الجبال سينتحر ويرمي جسمه لئلا يسخروا من بلاهته وضعفه ، فماذا تراكَ فعلتَ بنفسك من أول نظرة؟ انتظر لحظة من عمرك الفارغ هذا ، انتظر حتى ترى أو تسمع ما يقال .

كانت «عواطف» قد أغلقت فمها وهي تسمع صوتي ، لماذا أغلقت فمها؟ لا أدري ، أغلقت السماء غيومها ، والسحب الماطرة البعيدة مطّت أسنانها البيض ولم تترك لي فرصة أن أستيقظ من هذه الحمّى التي سيطرت على جسدي .

حياة لا تشبه في شيء حياة أحد ، هل تهزأ منا؟ ألا تفهم أن من السهولة قتلك؟ أفهم وليتك تفعل ، نملك الحق كله في قتلك ، نملك أن نفعل كل ما نريد ، هل تفهم أيها المسخ؟

- أعرف هذا ، أعرفه والله ، لماذا تخبرني بما أعلم؟

- إخرس أيها القذر .

في الليل الأول ، نمتُ على فراشي ، أحس بخوف يشبه مطاردة أُنثى من النوع الشريف ، ماذا كان يفعل سواي في هذا السرداب الرطب الجميل؟ أرى من خلف ضباب أسود : رجلاً ينام هانئاً ، أحاول أن أرى هذا (الحيّ) الذي ينام في مكاني ، يدخّن ويشرب شاياً ، تأتيه النساء أفواجاً ويخرجن بحب قبيح متورّم ، كنت أرى ، كنت أختفي ، الموت يدخل شرياني ، الموت داخل أوردتي ، أحيا في هذا البيت منذ صباي ، الموت يدخل شرياني ، الموت

داخل أوردتي ، أحيا في هذا البيت منذ صباي ، الموت معي ، ربما صار صديقي ، هل من أحد يحمل مثل حملي؟ هذا بيت تسكنه العفاريت والشياط و . . . .

– قلت لك أخرس ، أعرف أنك تشتم أجدادنا بينك وبين نفسك .

– من هم أجدادك أيها الفأر البشريّ؟

وبرغم أن لا صوت لي ولا حنجرة ولا شهيق ، لكنني أسمعه يقول :

– لن أسمح لك بذلك أيها الكلب .

أتذكّر في تلك الساعة من زحام الغيوم والسحب البيض حولي أن ثمة من راح يمسكني لئلا أسقط عند باب البيت ، بيت من؟ هناك من أيقظني بالماء والكولونيا ، أشباح ورجال وأطفال ، عباءات سود تهفهف حولي ، كلهم أيقظوني من إغمائي ، ربما رحت أكرِّر (شكراً) دون معنى ، حتى رأيت نفسي فجأة أمام «عواطف» وابنتها رشا .

*

لم أفهم الحال الذي كنت فيه ، ولا بيت من هذا الذي يضمّني ، رأيت جرحاً ناعماً على يدي ، أبحث عن كلمة مهذّبة أبدأ بها ، لكنَّني نسيت كيف تنطق الكلمات ، غلفتني الحيرة وأنا أشرب الماء الذي جاءت به «رشا» وهي تبتسم ، لم أتمكَّن من إرواء جلدي ، كانت أنفاسي تشبه ثغاء خروف مذبوح ، «عواطف» جاءت بالشاي ، تسبقها رائحة التمر والنعناع ، وأنا ما زلت أبحث عن مصيري بين هذه

العائلة التي عافها عبد الباري ولن يعود اليها .

– عليكَ بعائلتي يا سلمان ، ابنتي رشا ، زوجتي ، ليس عندي غيرك يا سلمان .

نزل الشلاّل كله على رأسي ، أتذكّر الآن كل شيء ، أجل ، لا بد من حماية نفسي فوراً ، عساني أتمكّن من حماية «عواطف» وابنتها ، ما أن بدأت أصابعي تتحرّك وتأخذ (استكان) الشاي حتى أيقنتُ أن أعصابي لم تحتمل رؤية هذا الجمال وتلك الأنوثة التي غمرتني بها «عواطف» مرة واحدة دون أن تستعيد هواجسي أو يستجير قلبي بقوة ما من السماء .

– سأعود الآن ، وغداً ، غداً أزوركم إن شاء الله .

قالت «عواطف» بسحر (أحسّه يتمرّغ بي) :

– أنتَ نفسك الذي رأته جارتنا قبل خمسة أيام؟ انتظرناك .

قلت ، وقد أعطاني الشاي بعض إيماني القديم بنفسي :

– يبدو أنك لم تعرفي من أكون؟

ثم قلت بسرَعة وأنا أشرب ما بقي من الماء الذي تركته رشا :

– إنها تسعة أعوام وأربعة شهور ، هذا الزمن يمكنه أن ينقل الكرة الأرضيَّة من مكان إلى مكان .

قالت بهدوء لم أتمكّن من تفسير نظراتها صوب فراغ بعيد :

– تسعة أعوام؟ نعم ، إنها تسعة أعوام فعلاً ، زمن !

كان (الزمن) الذي جاء فوق لسانها ولساني ، هو نفسه الذي قطعته «عواطف» بعد غياب عبد الباري ، ذلك أننا انسحقنا في ليلة واحدة ،

ورمونا إلى التهلكة في ساعة واحدة برغم المسافة التي تفصل بيني وبينه ، بل المسافة بين طباعي وطباعه وشكل حياته وحياتي .

سمعتها تقول بهمس فاجع :

– تسعة أعوام وأربعة شهور؟ إنه الوقت الذي رحل فيه عبد الباري ولم نسمع بأخباره أبداً ، حتى . . .

كانت «رشا» تجلس لصق أُمِّها ، تصغي إلينا بهدوء شقيٍّ بريء ، لم أتمكن من الكلام ورشا أمام عيني ، إذا بي أرفع قامتي أستأذن ثانية وأنا أقول :

– سأذهب الآن ، لا أتمكَّن من الكلام في هذه الساعة .

وأيقنت «عواطف» أن رشا ابنتها هي السبب ، فقالت :

– انتظر ، رشا ستذهب إلى صديقتها ، أريد أن أسمع منكَ ما جئتَ لأجله ، بصراحة ، أنا أنتظرك منذ خمسة أيام .

قلت بإصرار :

– ما أريد قوله أكثر مما تظنّين ، وأنا متعب والله ، سأعود غداً إن كان يناسبك ذلك ، أنا بحاجة إلى . . حسناً ، سأترك الكلام ليوم غد .

وعند الباب الخشبيّ رحت أضرب واحداً من الأجراس الكاذبة وأبتسم في وجه «رشا» لكن «عواطف» قالت :

– لم تخبرني ما هو اسمك حتى الآن ، بينما أنت تعرف اسمي واسم ابنتي معاً؟ ما اسمك حتى أناديك به .

قلت لها وأنا أتحرَّك هرباً من عينيها :

– ظننت أنكِ ستعرفين ذلك من أول نظرة .

رأيت مطراً من الدهشة ينزل فوق رموشها وهي تسأل :

- أعرف ذلك؟ ومن أول نظرة؟ !

تركت البيت ، وأنا على يقين ، أن «عواطف» كانت تخترق ثيابي وجلدي ، وأنها بقيت تحدِّق بي حتى اختفيت وراء منعطف الزقاق ، وما أن تحرَّرتُ من المكان الذي كنت فيه حتى شعرتُ بحاجة دموية إلى التبوُّل في أقرب مخبأ ، لئلا أفعلها في بنطلوني ، بينما المكان يدور بي وأنا أسمع صدى يردد بقوة :

- أعرف ذلك؟ ومن أول نظرة؟

لا أدري لمن ابتسمتُ في تلك الساعة؟ إحساس بالرضا والرجولة كان قد غلبني على أمري ورحت أمشي به بقية المسافة ، إلى أين؟ لا أدري ، هكذا أنا ، ما أن يغلبني إحساس ما حتى أخطو دون هدى ودون سؤال .

*

يومها ظننتُ أنهم تركوني وشأني ، بريء أنا ، وهم أول من يعرف ذلك ، لكنني حال وصولي إلى بيتي وقبل أن أفتح الباب ، كان اثنان منهم - في سيارة مغلقة النوافذ - ينتظرانني وهما (يعلوكان) شيئاً بين أسنانهما ، ودون سلام ولا كلام ، فتح أحدهما الباب وقال :

- ادخل .

ودون اعتراض ولا كلام ، دخلت ، أعرف أن لا فائدة من الهروب من الخراتيت السمينة المحشوَّة بالقسوة والمسدسات ، أغلقوا عينيَّ

بخرقة سوداء لم أعد بعدها أرى أي شيء ، تتحرَّك السيّارة في ممرات معوجَّة كاذبة لئلاَّ أكتشف المكان الذي سيأخذونني إليه .

وهناك ، في غرفة ضيِّقة جداً ، تركوني أكثر من نصف ساعة ، دون قطرة ماء ، دون سيجارة أخفف بها ارتباكي وهلعي ، أصابني الرعب بما يوازي ألف عام من التعذيب ، أسأل نفسي : هل يتكرَّر بقائي هنا تسعة أعوام أخرى؟ كلا ، سأقتل نفسي ولن أسمح لحياتي أن تكون هكذا مرّة ثانية ، البيوت كلها ، جاهزة للقتل ، بيوت التجّار والمرابين والمنحلّين ، الداعرين ، السماسرة ، البيوت كلها ، جدرانها من خشب سميك ، مكهربة ، وسخة ومريضة ، بيوت المقامرين والشحّاذين المزوَّرين ، أساسها متين ، بيوت الجلاّدين والقتلة ، بيوت النساء الغنيّات جداً اللائي يرقصن على نغمات الفودكا والعرق الشمالي المسروق ، كلها . . . . تسأل عني ، أنا الضحية الجاهزة ، الطرية ، الرخيصة ، الخائفة المرعوبة (منهم) ! .

بعد ذاك الوقت الذي جثم على صدري مثل ديناصور قاتل ، أخرجوني إلى مكان يبدو أنه في الطابق الأول ، ذلك أنهم منعوني من النظر طوال الوقت الذي يسألونني فيه ، وأنا أرتعش هلعاً أن يتكرَّر البقاء في تلك الدهاليز الدامسة الرطبة البلهاء :

– ماذا فعلتَ منذ خروجك حتى اليوم؟ الحرية الجميلة ، ماذا صنعتَ بها؟

قلت لهم بهدوء مصنوع :

– الحمد لله ، أنا بخير ، أشكركم ، بارك الله فيكم ، عدتُ إلى

حياتي كما كنت في السابق ، لم أفعل أي شيء ، لا شيء يستحق الذكر ، لكنني سأبحث عن عمل طبعاً .

– إسمع يا سلمان ، نحن نعلم عنك كل شيء ، أين تذهب ، أين تنام وفي أي مقهى تشرب الشاي .

قلت لهم بفرح كاذب :

– الحمد لله مرة ثانية ، إنكم تعرفون عني كل شيء ، هذا يساعدني على إثبات براءتي مدى الحياة .

قال واحد منهم بصوت أكثر خشونة من سواه :

– هل سمعت شيئاً عن حسون الباز؟

هذه المرة قلت بخوف حقيقي :

– حسون الباز؟ وما شأني به؟ ثم . . . هل مازال حسون حياً؟ أنا لا شأن لي بأحد بعد اليوم ، سوف أتزوَّج إن شاء الله وأعيش مثل بقية خلق الله ، بل اعذروني ، أعاهدكم على أنني لن أقترب من أيِّ صديق ولا من أيِّ قريب ولا شأن لي بالدنيا كلها . . . مستورة والحمد لله ، لا أريد أن أخربط حياتي مرة ثانية .

قال الصوت الخشن :

– حسون الباز هرب من هنا ، وهو ليس في بيته طبعاً ، إذا اتصل بكَ أو جاء إليك ، ستعطينا عنوانه فوراً ، هل فهمت؟ أعني ربما يفكِّر فيك ويأتي إليك لسبب أو لآخر ، عليك أن تأتي إلينا في الحال وتخبرنا بمكانه .

كان الرعب يجتاحني من أخمص القدمين حتى أهدابي ، وأنا أقول

كالببغاء :

– طبعاً طبعاً ، أنا شخصياً – يشهد الله – لا أريد أن أراه ، انه سبب المصائب كلها . . . ثم لماذا يأتي إليّ وهو يعرف حتماً بأنه . . . .

صرخ الصوت الخشن :

– بل نريدك أن تبحث عنه ، أن تسأل ، أن تعثر عليه بأسرع وقت ممكن ، عليك أن تساعدنا في القبض عليه . . . هل تفهمني يا سلمان؟

ثم قال أحدهم :

– اطمئن ، إذا عثرتَ عليه ، ستعثر على عشرة آلاف دينار تأخذها هدية صغيرة منا . . . . نحن ندري أنك لم تتزوَّج بعد ، وهذا يكفي لزواج محترم .

قلت لهم بصوت يشبه حنجرة أُنثى تُغتصب :

– إذا عثرت عليه سأخبركم بمكانه فوراً . . أنا لا أُحب هذا النوع من المصائب .

قال الصوت ثانية :

– ستأخذ الآن ألف دينار ، قد تحتاج إليها في النقل من هنا إلى هناك ، أما هديتك الكبيرة . . .

لا أدري إن كنت قاطعته وأنا أقول بشيء من الأمان :

– اطمئن سيدي ، أنا لا شأن لي بالسياسة ، وفي الوقت الذي أسمع فيه أي شيء سأخبركم به حالاً . . .

ثم قلت بشيء من البلاهة :

- لكن كيف سأخبركم بذلك؟ أنا لا أعرف المكان الذي أنا فيه الآن؟

قال أحدهم بسخرية مريرة وهو يقترب من شهيقي :

- ستأخذ نمرة تلفوني ، يمكنك أن تتصل بي في أية ساعة من الليل أو النهار ، المهم يا سيد سلمان أن تعثر على حسون الباز في أقرب وقت ممكن ، هذا يساعدك على التخلُّص منا إلى الأبد . . ندري أنك لا تحب أن ترانا . . .

*

أعادوني إلى بيتي ، كم مرة تكرَّر ذلك في كوابيسي؟ هناك اختفيت عن البشرية كلها ، أغلقتُ باب حجرتي على قشعريرة جلدي ، وقررت النوم علاجاً لهذه الرجفة التي احتوت جسدي ولم تفارقني حتى صباح اليوم التالي . .

لم أتمكَّن من التفكير في أي شيء ، حتى «عواطف» التي يجب الذهاب إليها وحياكة لعبتي معها ، لم أستطع أبداً نقل رأسي صوب مكانها ، إنهم يأتون في أي وقت ، لا يمنعهم الليل ولا الكلاب المسعورة من زيارتك في أية ساعة ، وهل تمنع الكلاب من نهش حريتك والنباح عليك؟

طالت لحيتي ونسيت أسناني ، ألُفّ جسمي ببطانية كثيفة الشعر ، أُلملم أحزاني تحتها وأسأل نفسي ألف سؤال في الساعة : ماذا أفعل معهم؟ كيف يمكن التخلُّص منهم فعلاً؟ إنهم يتربّصون بي ، فكيف

الخلاص منهم؟ أين حسون الباز؟ وإذا ما رأيته أسلّمه إلى أنيابهم الشرسة؟ ساعدني يا إلهي ، تكفي تلك السنوات الحمقاء التي مضت سدى في سراديبهم القذرة . . أنا لا أريد سوى الخلاص منهم ، عساني أتمكّن من العيش بالطريقة التي تناسبني ، لكنهم خلفي يطاردون قلبي ونبضه ، فماذا أفعل وكيف أنتهي من هذا الجحيم؟ ما هو ذنبي حتى تصبح من نصيبي هذه النار التي أحرقت حياتي وما زالت تحرق فيها؟

حقاً ، لا أدري ماذا سأفعل إذا رأيت حسون الباز مصادفة أو اتصل بي مثلاً ، أو حتى إذا ما مرّ بخاطري ، سوف يسألون كيف مرّ إلى هناك ويأخذون (خاطري) للتحقيق حتى الموت أو الجنون .

أكره خوفي منهم ، أكره نفسي (ماذا دهاكَ يا سلمان؟ هل ستنتهي حياتك في ظلّ هذا الرعب الذي أنت فيه؟ وكيف يكون الخلاص إذا كان الجميع في مثل خوفك هذا؟) أمتطي صهوة فارس من القرون الوسطى ، أحلم أن أكسر المدينة إلى شظايا وأهشّم الأول والتالي ، أصرخ في الشوارع والبيوت والأزقّة :

- اخرجوا أيها الناس ، حطّموا هذا الخرتيت قبل أن يختاركم جميعاً للموت . . اخرجوا يا بشر ، اقتلوا هذا الديناصور الأحمق قبل أن ينتصر عليكم ويسلبكم كل نقطة حياء في وجوهكم وكل نقطة دم في أجسادكم .

ثم ،

أضحك من نفسي وأبكي عليها ، وأنا أرى العساكر في كل شبر من

بغداد ، عساكر من كل نوع وصنف ، حتى الجدران التي نتعكّز عليها ونسند ضلوعنا إليها ، صارت بعض عناصرهم ومن جملة عساكرهم ، كلها صور وشعارات بلهاء تنزف حقداً وغباء وتساهم في تشويه المدينة والحاضر ، قلت (يا إلهي ، كيف لم أنتبه إلى هذا الشريط الأغبر الدموي من الكلمات المجمّدة على حيطان المدينة؟ كيف لم أنتبه إلى كثرة الشرطة في كل جزء من حمام المالح والحيدرخانة إخانة والعاقولية وقمبر علي والست هدية والطاطران وتحت التكيَّة وسوق حنون؟) ! .

ماذا جرى حقاً في هذه المدينة التي سمّوها ذات يوم في التاريخ بمدينة السلام؟ إنها ، على ما يبدو ، مجرَّد ساحة حرب ، مع من؟ لا تدري ، لكنها تموج بالأسلحة والقتلة والعساكر واللصوص والداعرات والشتائم والقاذورات . . أجل ، ساحة حرب تمتد من محلة اليرموك إلى شارع الأميرات في المنصور وتأخذ طريقها بالتواء عجيب من العباسيَّة إلى القادسية إلى جلالة فرعون الخامس ، ممنوع ، الوقوف ممنوع ، الكلام ممنوع ، يمكنك الكلام في خضر الياس والست نفيسة ، أما قرب دجلة وعلى امتداد الماء فهو لهم وحدهم ، بما في ذلك النساء والخمور والطعام الشهي ! !

أين السلام الذي عرفته بغداد طوال حياتها؟ أين الناس الشرفاء؟ لا أكاد أرى بشراً في الطرقات ، لا شيء سوى الملابس العسكرية والمسدسات والعيون التي تأكلك وأنت تمشي بريئاً وتنام بريئاً . . . ماذا جرى في تلك السنوات التي قضيتها في سرداب الموت؟ كم

جريمة في غيابي مرَّت وكم ضحية لم أسمع بها ، وكم قتيل راح ولم تعد حتى جثته إلى ذويه؟ كم خطأ فات ولم يسمع به أحد ولم يسأل فيه أحد؟؟

أمعقول ما أرى؟

أكاد لا أعرف هذه المدينة التي عشت فيها طفولتي وصباي ، لا أكاد أفهم أهلها ولا شوارعها ولا شحاذيها ، لم يعد من أحد في الزقاق يسمع ضحكة هنا ولا هناك ، الحزن يجثم على النفوس ، رأس أفعى يختفي لا تدري في أي جحر ولا متى ستراه ثانية لتموت . . الحزن يأكل جلودهم والجوع يتسلَّل بطيئاً إليهم ، الكل في صمت قاتل ، ذلك أن الأسلحة هي التي تنطق ورجال الشرطة على أهبة التنفيذ للقتل وإخفاء القتيل .

*

تطارده الحمّى ، تدور به في عروق البيت ، أيُّ البيوت كان قد اختار هذا المولع بالموت؟ من جاء به إلى هذا المكان البعيد؟ كيف جرّ نفسه إلى المنفى بيديه؟ الخراب وحده من جاء في زيارة إليه . . . على صفحة الجدار ، جدار بيته الوحيد ، خطوط وأسماء ، على كل بقعة من الغرفة ، شخابيط بالأظافر ، وخطوط ، أسماء لا ترى ، إذ ليس من ضوء سوى ما تحسُّه الروح ، إنه يبحث عن نفسه ، هل كان يحب العزلة فعلاً؟

الحرّاس يتهامسون :

- ماذا به؟

- لا شيء ، لقد اعتدنا هذا الصمت منهم واعتدنا أيضاً تلك النظرات المخبولة .

- لا أظنُّه سيخرج حياً .

- وهل من أحد تمكَّن من ذلك قبله؟

هو الخراب ، حلّ كما تأتي العواصف ، يجر إليه كل شيء ، كم مرَّت هذه الفأس في عروق البيت وفي باطن التربة؟ في تلك السراديب والمنحنيات ، كم جثَّة تقطّعت غضاريفها وانسلخت تحت جلد البيت ، ومن أجل مَن كان هذا القتل كله؟

*

لم أكن أصدِّق ما أرى ، وبرغم ذلك ، لم يعد من حلم في رأسي سوى الزواج من «عواطف» ، ولتكن تلك آخر حماقاتي قبل أن يجرجروني ثانية إلى هناك ، من يدري كيف يكون شكل العودة إليهم وماذا يضمرون لي هذه المرة إذا ما فشلتُ في العثور على حسون الباز؟

تحرَّك لساني في دغل صاخب من خوف ولعاب (ولماذا أُفكر في العثور عليه؟ ليس هذا شأني ، إذا كانوا يملكون أسلحة الدنيا ونصف عيونها وجواسيسها لم يتمكنوا من القبض عليه ، فكيف أفعل ذلك وحدي أنا الانسان الأعزل البريء؟) .

غيمة شهباء ، ربما غيمة من ثلج ، وأمواج من سحب بعيدة

غمرتني بشيء من القوة ، هكذا ، على حين غفلة ، تسلّلت نحوي وأرغمتني على بكاء سعيد : إن العالم لن ينتهي أبداً ، وإن هذا النوع المقرف من البشر هو أكثرنا قرباً إلى الهلاك والموت .

لهذا ، رفعتُ أنفي صوب تلك الغيوم ، جليد من مسامات «عواطف» راح يبلل الجحيم الذي أشعله هؤلاء ، أهبط إلى الريح ، حقل بلّور وسطوح مشبّعة بالنجوم ، بريء شارد ، ربما درويش غائب ، أفتح أسرار قلبي وأبكي حياتي التي بعثروها دون حياء ، لكنني برغم أنوفهم ركبت نزواتي ومضيت بها إلى زوجة عبد الباري ، أختلف مع نفسي على هذا العطش الفاجع الذي يسلبني كبريائي ويغلق باب الضمائر في وجهي .

غزالاً نصف نشوان ، أقف عند بابها ، أطرق على رماد كثيف أورثه لي السندباد خلسة ورماه على حاضري ، أنا المسافر بين السكاكين والطاعة والسخرية . . . منبوذ ، يتراكم فوقي جبل سرطانيّ خبيث ، مغلق حتى بابها الخشبي ، حوافر حصاني تسبقني إلى الذعر منها ، لكن باب بيتها يغمزني بشوق حقيقي ، كيف بي – أنا الرخو المقتول منذ أيام المسيح – أقنعتها بالمستحيل؟ كيف أفرض عليها شكل المعجزة التي جئت أصنعها بعد تسع سنوات وأربعة شهور من الفراق والنواح والنزيف على صليب الذكريات؟

كنت أطرق الباب ، جارتها مرة ثانية من وراء الحائط تشهق بنصف هواء العالم ، أول امرأة تأكل الهواء كما البقر ، لكنها تبتسم ، بل تضحك (ربما كانت في الحمام ، إذا كانت هناك لن تسمع الطرق

على الباب ولا رنين الجرس) .

قلت بصوت سمح :

- ربما تسمعني «رشا» .

قالت الجارة وهي تهزُّ كتفها :

- رشا وهدى في السوق ، يمكنكَ انتظارها في بيتي ، تفضَّل ، هل أنت قريبها؟

هل أنتَ معلم «رشا»؟ هل أنت . . .

قلت وقد رأيت قطاري يدخل في نفق معتم :

- هل عندها بنت اسمها هدى؟ !

قالت جارتها وهي تضحك على عرش غبي من الفرح :

- هدى؟ هدى ابنتي أنا ، تفضل يا أستاذ . . . البيت بيتك .

قلت بخوف رث دون معنى :

- بارك الله فيكم ، سأعود بعد نصف ساعة .

هياج في البنكرياس ، دمي يخاصم لحمي ، هجوم فقير على الجزء المطمئن من جسدي ، خيبة لا أفهم نسيجها ولا أدري سرّ هذا الغضب الذي يسقط فوقي؟ كنت في حرب أخوضها وحدي على مدينة نمل مهجورة ، تماماً كما يفعل أي حاكم عربي معزول ، ليس من قناع فوق ملامحي غير هذا الملك المتسوِّل عند أعمدة شارع الرشيد (كم أمير وكم ملك وكم رئيس وكم مجرم رأيت طوال حياتي؟) الحمد لله ، قلت في الكهف الذي ينام فيه أهلي :

- وكم أمير وكم ملك وكم رئيس سأرى قبل موتي؟

أجثو كما الفرسان في حضرة ذكرياتي ، مثل عاشق يتمرَّغ تحت لحاف المعشوقة ، أتذكّر كل كلمة وصف وكل خطأ وكل غموض وكل دسيسة مرت على لسان عبد الباري وهو يحكي عن زوجته طوال تسعة أعوام من الملل والانكسار والشك والرفض واليقين من شكل الفاجعة التي انتهى إليها .

وها أنا بعد هذا الوقت (الخربان) أخترق حرمة الماضي بحجَّة النيّة الطيّبة والقصد الشريف الطاهر ، أترك العنان لشهواتي ، بلا حرب ودون حيرة ، أقترب مثل ساحر ، وأدخل كما الفاتحين إلى حياة هذه المرأة التي بقيت أمام عيني أكثر من ثلاثة آلاف وأربعمائة يوم ، دون أن ينساها دمي أو يبتعد طيفها الحزين عني ، طائر من سمرقند ، ربما هي (أنثاي) الأبديّة التي لا بد أن تظهر في العمر ذات ساعة ، لاذع جرحها الطريّ الأنيق وليس من حلّ غير أن تكون لي مهما كان حجم خسائري وهبوطي .

*

بعد نصف ساعة ، قطعتها في المقهى ، بين حالة من ولع وحالة من نفور وحالة من أسئلة عن حسون الباز ، رأيت أن الوقت قد حان لرؤية «عواطف» مرَّة ثانية ، صراع على عاصمة مغلقة لا أحد يدري حقيقة أسرارها سواي ، أهدابي تتحرَّك دون إرادتي ، أشعر برغبة عجيبة إلى الصلاة ، أختفي وراء أشباح بيض وأشباح أطول مني ، هل جئتها في وقت مبكّر لا يناسب الناس في هذه المحلّة؟ أي نغم أسمع

في البيوت؟ من تراه يغنّي في هذه الساعة ويضحك مني (وين رايح وين؟) ! .

كنت أُغنّي مع أذنابي من أوردة وشرايين ، أغنّي لهم (وين رايح) وأُخطّط لهم الظهور والعمق وهندسة الصوت أمام الناس ، لكن المسافة إلى بيتها أصغر من طول نخلة واحدة ، أعطيت لنفسي الحق في مغامرة أخيرة ، قلت هادئاً :

- تحرَّك أيها الخروف ، الحياة نفسها لعبة كبيرة . . . وما أصابك في دهاليز المسعورين لهو أكبر من أية لعبة في الكون ، وما الخطورة بالله عليك بين رجل - أي رجل - وبين امرأة - أية امرأة؟ تحرَّك ، لا يمكن الذهاب إلى النجوم على عكازة من خشب .

في صالة البيت ، حاشية من الشقوق والإرضة ، مع أن المكان يشبه بستاناً من كثرة الزهور وأوراق الشجر الصناعيّ الأخضر ، لم أنتبه إلى أي شيء في المرة السابقة ، هذه زيارة رجل يريد أن يصبح ربّ البيت في لمح البصر ، لا جذور لي في هذا الطوفان الذي يسحبني إلى الحيرة والجنون ، وبرغم ذلك - أنا الحصان الجامح - لا أرى ثمة من يسابقني إلى فردوس هذه المرأة ، أنا الصياد الذي يخاف من فريسته (مرعوب من فكرة : أن أخسر مرتين) .

هشَّة ومرعوبة ، نبضات قلبي ، وأنا أهزّ جذعي دون إرادتي ، لا أدري من أين أبدأ ، ولا كيف أفتح فمي ليحكي ما في ذاكرتي من رنين (عبد الباري) الذي سمعته ثم رأيته يطلّ من شرفة مفتوحة في أعلى رأسي ويسألني : ماذا جئت تفعل في بيتي يا سلمان؟ هذه زوجتي

وتلك الصبية ابنتي ، ماذا جئتَ تفعل والخراب السياسي لم يترك لي من بقية ولا من رجاء؟

نظرت إلى «عواطف» ، كانت أقوى مني وهي تسأل بهدوء تلفّه الدهشة :

- شاي؟ أم أنكَ تحب القهوة؟

قلت ورأسي يدخل في فرن طافح بالنار :

- أريدها مع قليل من السكر . . .

لا مناخ لهذا الجسد الفارغ ، ماذا دهاني؟ إنها المرة الثانية وأنا أجلس مثل أبله ، بل أشبه ما أكون بدجاجة من خشب تركوها للزينة ، هكذا ، دون شهيق وبلا إحساس ، محض طائر عجوز لا يعرف النطق بشيء . . من أورثني هذا الرعب يمتصّني ويرميني مثل جارية محكومة بالصمت ، حتى أن أية خادمة في الكون أكثر شجاعة من عظامي ، أنا الدجاجة الخشبية ، أجلس في ركن من صالة البيت أنتظر القهوة دون إيحاء ولا وحي ينقذني من رثاثة مخي ، من هذا الشلل الذي لفّني مثل طفل في يومه الأول ، في يومه الأول الرهيب .

يطفر من بين ضلوعي كائن يشبهني ، لكنني لم أعرفه أول وهلة وهو يقول نيابة عني ، ربما أراد أن يثبت لي مستوى بلاهتي وهو يفتح فمه قبلي :

- لا بد أنك يا «عواطف» لم . . .

ثم سكت الكَائن الذي كان يشبهني ، لم يعرف بقية الكلام الذي أراد البوح به ، عالجته بوخز دافىء صار يطفر - هذه المرة - مني وقد

تغيّر شكل الكلمات إلى :

– أدري أنك تستغربين حضوري مرتين ، وأنا صامت هكذا لا أقول أي شيء .

قالت وهي تبتسم :

– في كل مرة جئتَ فيها كان هناك أكثر من سبب يمنعكَ ثم يمنعني من الكلام ، أدري أن عندك ما هو أكبر من هذا الصمت .

أصبح لحمي أكثر شجاعة وأنا أقول مثل بركان قرَّر أن ينفجر مرة واحدة :

– أنا زوجكِ يا «عواطف» !

*

كادت «عواطف» أن تنهض من مكانها وهي توشك أن تفعل شيئاً لا أعلم به ، سوى أنني قلت بسرعة :

– أدري أن كلامي غريب عليكِ ، السنوات التسع التي مرت غيّرتني تماماً .

ماذا جرى في تلك الساعة من الزمن العراقيّ الباهت؟ حقاً لا أدري أبداً كيف رأيت نفسي خارج البيت ، أو ربما كنت خلف الباب الخشبيّ ، وما زال بيني وبين باب الحديقة أو باب الطرد ما يزيد على مترين ، عندما قلت بهمس مسموع :

– أنا عبد الباري ابن الشيخ جسّام الشطب ، دعيني أخبركِ بما جرى يا «عواطف» ، عيب ما تفعلينه أمام الجيران .

هل تراني احتسيت القهوة؟ لا أعلم ، سمعتها من خلف حجاب سميك :

- عيب ما تفعله أنت؟ تفضل ، تفضَّل ، لا أريد أن أراك ثانية في بيتي . . . قلت بسرعة أحمي بها نفسي من الفضيحة قبل أن تغلق الباب في وجهي إلى الأبد :

- سأثبت لك أنك زوجتي ، سأثبت ذلك فوراً ، لكن دعيني بضع دقائق يا «عواطفَ» . ما تفعلينه لا يناسبك أبداً .

في لحظة غنيّة جداً من (زمني) رأيت «عواطف» تسكت ، كأنها تنتظر ما سأقول ، بينما رحت أنطق الكلمات بخوف منظّم ورعشة أحسبها مع نبض قلبي وأنا أبتسم مثل مهرج أبله :

- إنها تسعة أعوام وأربعة شهور ، لك الحق كله في نسياني ، أنا لا ذنب لي في ما جرى ، سوف تعذرينني بعد أن أشرح لكِ كل شيء .

لا أدري كيف أفسر نظراتها ، لكنها قالت :

- تشرح ماذا؟ هل توجد امرأة في الكون لا تعرف من هو زوجها؟ !

ثم قالت بسخرية لاذعة :

- لا بد أنك من النوع الذي يذهب كثيراً إلى السينما !

قلت بقليل من الغزل وكثير من التردد :

- أنت أول من يعرف كم أحببتكِ يا «عواطف» .

هل تراَها صرخت :

- أرجوكَ أن تكفّ عن هذا الكلام الرخيص ، ماذا تريد فعلاً؟ من

أنت حقاً؟ ماذا تعرف عن زوجي؟

قلت بإصرار :

- أنا زوجك أنت يا «عـواطف» ، زوجك عـبـد البـاري ، مـا زلت أتذكّر صراخكَ يوم أخذوني في تلك الليلة . . هناك أعني في سجني الانفرادي ، لا شيء عندي سوى أن أفكر فيك .

- هل كنتَ وحدكَ تماماً؟

هو الصـمت ، يغلي عند الرأس ، مـثل مـاء يتبـخّر ، يصعـد نحو أحـشـائي ، في مـسـامـات هذا الجلد الشيخ - كم يبـدو رهيبـاً هذا الصـمت !؟ - والوجه الشهي المغـامر ، يصعـد صـوب روحي ، طي خديه وعينيه أحزان سنين ، يلوذ الليلة بالذكريات :

- دعه في الغرفة (٧) انها تناسبه .

- سيدي ، إنها محجوزة لواحد من الجواسيس .

- دع الجاسوس في غرفة أخرى .

وفي الغـرفـة(٧) تزوجتُ النسـاء كلهن ، ها هـي تدخل نحـوي ، المومس الجميلة ، تهـمس في قلبي : مشواري طال وأنا أبحث عنك ، خـدعة كـانت أن أبحث طول هذا الوقت ومن ترى يصدّق أني جئتك مجاناً؟

المومس الحلوة ، يحتوي جسمها على مأكولات شهية ، ليس من العـقل أن أترك شيئاً منهـا ، قلت لهـا : إنزعي ثيابك بهـدوء ، اتركي لي القطعـة الحـمراء المنقطّة بـالسـواد ، دعيـهـا لأصـابعي ، أسـأل : أيهـمـا للبـيع وأيـهـمـا لـلشـراء؟ الجـسـد ، أم تلك الخـيـالات التي سـبـقت

حضورها؟ أيهما كان لي ، جسد المومس الجميلة أم خيالات جمجمتي وهي تغرق في الدهشة والفرح؟ المومس العذبة (بلاش) على فراشي ، إنها جنوني وعشقي ، وحدي من تنام معه ، بل وحدي من كان وراء نظاراتها وجسدها الذي زاد نضوجه من خيرات يدي .

*

فجأة ، راح لساني يحكي بخفّة عجيبة ، كمن يقرأ في لوح مفتوح أمام العيون :

– لا شيء عندي هناك غيرك أنت ، وأنا وحدي في غرفة لا أنيس فيها ولا بشر ، أتذكَّر كل شيء كأنه البارحة يا «عواطف» ، كأس البيرة الذي تأخذينه من يدي مساء كل خميس ، سجائرك الثلاث التي لا تفارقك أبداً . . أنا لا أملك في هذه الدنيا غيرك يا «عواطف» .

قالت بكثير من الاستخفاف ، لكن بطيبة قلَب لم تفارقها :

– من أخبرك بذلك؟ لا بد أنك تعرف (يُسرى) صديقتي ، هي التي أخبرتكَ بأسراري؟ يا لها من غبية ، كنت أعرف أنها . . .

قلت ، وقد تسرَّب القليل من الأمل صوب أعضائي :

– أنا لا أعرف يُسرى ، أنا زوجك عبد الباري ، تزوجنا في الخامس من تموز ، كانت الدنيا تشتعل قبل أن نسافر نحو بيروت ونقضي شهر العسل هناك على الجبال في «بسكنتا» . .

رأيت نهراً خفيفاً من الدهشة يمشي على أهدابها وهي تهمس مع نفسها :

– بيـروت؟ بسكنتـا؟ ومـاذا في ذلك . . ألف واحـد يعـرف أننا تزوجنا هناك . . .

قلت بسرعة قبل أن ينطفىء النور الذي راح يشعّ في صدري :

– يا حبيبتي مهلاً . . .

قالت بقوة وعناد :

– أرجوك ، لا تنطق بكلام كهذا . . . دعكَ في حدودك ولا تبتعد أكثر من ذلك .

قلت ، وأنا أختنق خوفاً من هروب الفريسة :

– حسناً يا سيدتي ، إذا كان هناك ألف من يعرف بزواجنا . . فهل هناك من يعرف «ساحل البحر»؟

كنت أطرق على الحديد قبل أن يتساقط الثلج عليه :

– ساحل البحر؟ هل يعرفها – تلك اللعبة – أحد في الكرة الأرضية سوانا؟ في لحظة عفوية من الوقت المباح ، رأيت «عواطف» تسمح لي بالصمت وهي تحرّك أصابعها في الهواء ، ظننت أنها تريد أن تصرخ ، لكنها ، بهدوء – وهي تنظر إلى بؤبؤ عيني – راحت تقول :

– أنت تعرف زوجي عبد الباري ، نعم ، أنت تعرفه حتماً ، هو الذي أخبرك بأسرارنا . . . معقول؟ كيف أصدّق أن عبد الباري يفعل ذلك؟ كلا ، أنت لم تكن وحدك في السجن . . . كنتما معاً ، أنت وعبد الباري .

قلت بهدوء مزوّر وأنا أخفي بعض ملامحي خلف جزء من يدي :

– يا سيدتي ، أنا عبد الباري .

- كلا ، أنت تعرفه ، لا بد أنه كان معك أو كنت معه - وهذا هو الصحيح - أنت كنت معه في السجن وأخبرك عني وعن . . .

قلت بسرعة قبل أن ترجع السمكة إلى الماء :

- هل يوجد رجل عراقيّ يحكي عن شيء كهذا؟ ما هذا الكلام العجيب الذي أسمع منك؟ لماذا ترفضين أن أعود إلى حياتي؟

مرة ثانية لم أتمكن من تفسير تلك النظرات :

- إذن ، كيف أُفسِّر هذه المعلومات من رجل لا أعرفه أبداً؟ أنا لم أرك طوال حياتي وليس من شبه بينكَ وبين عبد الباري . . . ربما . . .

كنت أقول بخفة طائر ما عاد يمكنه الهبوط مطلقاً :

- هذه ليست معلومات يا «عواطف» ، السنوات وأجهزة التعذيب والأرض الرطبة والسراديب الموحشة قتلت المئات ، وأنا أحمد الله أنه ساعدني على البقاء حياً ، لم أخسر غير بعض ملامح وجهي والكثير من صحتي . . .

قالت وهي توشك أن تسقط أرضاً :

- يكفي ، هذا يكفي ، أرجوك أن تذهب الآن . . . أرجوك .

هنا ، كان لا بد من القول :

- إلى أين؟ هذا بيتي ، وأنت زوجتي ورشا ابنتي ، لم أشبع حتى من النظر إليها . . لماذا أعيش محروماً من كل نعيم؟

بركان داخل غرفة ، هذا هو الشيء الذي رأيت . . . وقبل أن يرعبني انفجاره الرهيب كنت أقول :

- لا أريد أن أراكِ هكذا ، سأعود في وقت آخر . .

قبل أن أغادر بيتها ، سمعتها تسأل :

- اعطني عنوانك ، أنا التي سآتي اليك ، هل تسمح؟

غادرتني شجاعتي وأنا أفكر : كيف يمكنها أن تأتي إلى بيتي؟ لا بد أنها ستعرف الحقيقة فوراً ، لكنني بذكاء لم أكتشفه من قبل في جمجمتي ، رحت أقول :

- هل أملك غير بيتي هذا؟ أنا أسكن كل ليلة مع واحد من الأصدقاء ، أحياناً أذهب إلى الفنادق ، وما زلت أنتظر رحمتك حتى أعود إلى حياتي .

قالت وهي تشبك أصابعها بقوة :

- ولماذا تأخرت في المجيء إذا كان هذا بيتك فعلاً؟

صحيح - هكذا قلت لنفسي - لماذا أرتكب حماقة بهذا الحجم إذا كان البيت بيتي ، كما هو مفروض بيننا ، وكيف تراني سأرمم هذا الخطأ الذي يوازي قلعة شامخة في صحراء؟ وبرغم ذلك تمكنت من النطق كما يفعل أي تلميذ في قاعة امتحان مغلقة :

- كنت أدري أن السنوات التي مرت إنما جعلتني على صورة غير صورتي وطباع - ربما - ليست طباعي ، كان لا بد أن أختفي عنك بعض الوقت حتى أستعيد بعض نفسي القديمة ، هكذا قررت بيني وبين افتراضاتي ، ولا أظنني على خطأ جسيم . .

قالت بسرعة كأنها لم تسمع :

- طيب ، هل يمكنك إعطائي شيئاً ، أي شيء يثبت من تكون؟ أدري أن السماء يمكنها أن تنقل غيومها إلى جرم بعيد عن الأرض ،

لكنني لا أصدق أن تكون أنت عبد الباري ، لسبب بسيط هو أنني أعرفه تماماً بينما لا أعرف عنك أي شيء . هل تفهمني يا سيد . . .

مددت يدي إلى جيب خفي وأخرجت (هوية) أعرف ما كان فيها من أسماء ورموز :

- سأتركها عندك حتى أعود .

ومضيت من أمامَها ، أعرف أن تلك (المفاجأة) ستحكي الكثير في غيابي ، ومن أين لها أن تكتشف ما الذي فعلته مع أختام الهوية التي تلتصق بقوة فوق صورتي؟؟

*

ما أن تحركت أوردتي صوب فضاء بعيد عن أسلاك «عواطف» حتى استيقظ دمي على حسون الباز ، ترى ماذا سأفعل (معهم) إذا طالبوني برأسه؟ سياسي كبير ويعمل ضد النظام ، سبق لهم أن مسكوني في بيته أثناء اجتماع ممنوع ، فكيف أفسر غيابه عني ، وماذا سأقول أمامهم وأنا لا أدري - فعلاً - أين يعيش وماذا يفعل؟

ما كنت أعرف الهدوء (هناك في دهليزي المسكين) جنوني يسبق كل شيء في جسدي ، يسبقني أنا ، وهذه الداعرة الرائعة تعرف أني مجنون ، غرق في فراغاتها ، لن أستطيع حتى مماتي أن أنقذ نفسي منها ، ترمي ثيابها ، يا لتلك الهلوسة ، طوق نجاتي الوحيد ، الحلوة تغمز لي ، تفهم سرّي ، وعلى فراشي أسمعها تهمس : ادخل يا طفلي الجميل ، ادخل ، افعل ما شئت ، قل ما شئت ، لكن ادخل ، أنا هنا ،

تحت لحمك تماماً ، ادخل أيها الأحمق الفاتن .

علّمتها دون بوح : أن كل شيء تريد ، كل ما تحلم فيه ، إنما هو في عظامي ، في لحمي ، في مسامات جلدي ، وأنها لن ترى في أيما رجل - مهما كان عظيماً - سوى وجهي أنا ، وصراخي ، وقوة دفعي ورعونتي ووقاحة جسمي أنا . . .

- يبدو أنه سعيد بهذه العزلة ، انظر إليه .

- نعم ، إنه يضحك ، إنه يعضّ على شفتيه ، كلا ، إنه يفعل الحب مع امرأة في الخيال . . . ألا ترى؟

- لا بد أن الجنون قد تمكّن من أسفله أيضاً .

هذا الرجل الهابط في بحرها ، يغوص في صميم أحشائها ، يفرك لحمها ، حالة نادرة ، هي تدري بهذا ، وتأنس إلى لهاثه الشهيّ ، تهمس من وراء غيبوبتها :

- وحدك ، من أريد .

*

واذا ما عثرتُ على (حسون الباز) . . كيف أعطيه إلى أولئك القتلة؟

صحيح ، أنا أعرف نفسي ، وأفهم أن ما أفعله مع زوجة عبد الباري لا يناسب الضمير الذي أفخر به ، لكن الحب الذ ي عشته طوال تسع سنوات يبرر تلك الجريمة ، عبد الباري هو الذي أخطأ في حق نفسه وأخطأ في حقي أيام رماني إلى بحورها وأسرارها وأُنوثتها . . أما

تسليم حسون الباز إلى مجازرهم فهو أكبر من أية جريمة في الأرض .

تمنيتُ من الله أن يختفي حسون الباز ، لا أريد أن أراه ، لا أريد أن أعرف عنه أي شيء ، فهذا وحده - قد - يساعدني على الخلاص منهم ، وأنا أعلم بأنهم يعلمون ، لكن ماذا سيكون الحال إذا ما رأيت الباز وصار يراني كما أراه؟ أدري ، وأنا على يقين من ذلك ، بأنه سوف يرغمني على شن حرب شعواء ضد هؤلاء السفاحين ، سيقول : كم عذبونا ، كم بصقوا علينا ، كم طاردونا ، وكم ضحكوا علينا . . وأدري - قبل أن أراه أو أسمع به - كم هو وحده على ألف حق ، وكم أنا وحدي الذي سيخاف منهم .

أسأل نفسي وأنا في طريقي إلى ما يشبه البكاء :

- لماذا أستمر في هذا الخوف منهم؟ ألا يمكن تهديم هذا الحاجز سنة واحدة من عمري ، أو حتى شهراً بينما أُرمم هذا البناء المقلوب وأستعيد بعض شهيقي وشيئاً من كبريائي؟ هناك مئات من البشر لا شأن لهم بأحد وليس من شرطيٍّ يطاردهم أو يستفسر عما يجري في نهاراتهم ولياليهم ، وأنا إنسان بريء فعلاً ، أدفع ضرائب الدولة بخضوع وأستجيب - كما الخروف - لكل قرار أو قانون أو تعسف يفرضونه علينا ، فما سبب الخوف يتغلغل إلى جزء من لحمي وإلى كل قطرة دم في عروقي؟ أنا ، كما يقال في نشرة الأخبار (مواطن صالح) وأعرف ما يعنيه ذلك بالنسبة للنظام ، لا أسرق ، لا أنتمي إلى أي تجمع سياسي ، لا شأن لي باعتراضات العمال ولا الطلبة ، مواطن عراقي صالح ، أذهب في طريقي إلى عملي البائس الفقير وأرجع من

الطريق نفسه إلى حياة فقيرة بائسة ، لا أضرب أحداً ولا دجاجة أو نعجة في الطريق ، لا أشتم ولا أقول كلاماً أبعد من حدودي . . فكيف يمكنهم فرض رقابة على عقلي وسيقاني ، بل كيف يرغمونني على تسليم إنسان - إذا عثرت عليه - حتى يرموه إلى السراديب والسياط وقلع الأظافر؟

أية محنة أيها الرب ، تلك التي لا نهاية لها ، وليس من رجاء بعدها ولا أي يقين من جمعها في قبضة يدي حتى أرميها إلى نهاية الكون؟

- إنه يغرق في بطانيته ، أنظر إليه الآن .

- ألا ترى؟ وجدنا شيئاً يستحق الاهتمام .

الليل ، رجل في الليل ، حيث تبدأ الحكاية ، سوى أن شيئاً غريباً يتحرك في الحائط ، جعل البقاء في الغرفة أقرب ما يكون بفاجعة . . أهمس بصوت يلتوي مع حركة رأسي وثيابي ، اليوم يشبه البارحة . . البارحة تشبه أول البارحة . . هذا قدر سخيف أن تكون حياتي مثل حياة أي جرذ آخر . . .

ومشيت من أمام نفسي ، أضحك على هذا الكائن المزروع بالرعب ، هذا الشبح العراقي الذي طردوه ألف مرة وطاردوه العمر كله ، آخ لو أن «عواطف» تفهم كم أُحبها وكم أحتاج إليها ، ربما تصبح إنقاذي من مسلخ (هؤلاء) أعيش بقية عمري على جبل من الدفء والأنوثة . . . وربما؟

ربما؟ أي غباء هذا يا سلمان؟ هل نسيت أيها الأحمق ، عبد الباري ، كما هو الحال مع حسون الباز ، محض رجل محكوم بالقتل

أيضاً؟ واذا ما قالت «عواطف» سهواً أن عبد الباري ابن الشيخ جسام الشطب عاد إلى البيت ، ماذا سيكون مصيرك أيها الأبله ، بين أنياب الحكومة التي - وحدها - من يعرف الحقيقة؟ ووحدها من سيقرر نوع الفضيحة أو العقاب . . . كلا ، ليس هذا هو الحل مطلقاً . .

أهمس في جزء خفي بعيد من الروح :

- ولن تحصل على أي حلّ أبداً يا سلمان ، ليس من حل ، ما دام القتلة يتربصون بالدنيا ومن فيها .

حسناً ، قلت لنفسي ، سأطلب منها التكتّم على (زوجها) لئلا يأخذوني ثانية من حياتها ، ربما - بقليل من الأمان والطمأنينة والحب معاً - أختار لها اسم (سلمان يعقوب) مثلاً ، عساها تصدق اللعبة وتعيش معي تحت سقف واحد على أنني زوجها الثاني ، أعيش معها باسمي الحقيقي وأتخلّص - كما تتخلص «عواطف» - من أسئلة الناس وعقاب الحكومة .

المُهم ، سيأتي هذا في حينه ، إذ ليس شيء يضمن لي مرور هذه الخطوة على خيالاتها ، لا سيما أن ما يربطني من شبه مع عبد الباري ليس أكثر من بؤبؤ عسلي خائب وأنف منحرف عن الشاربين وكتلة شعر مرميَّة إلى الوراء ، وأربع سنوات يكبرني بها ترفض أن تظهر على شكله أو حركاته ، أما بقية ما خلق الله فقد اختلفنا - أنا وعبد الباري - كما يختلف النور عن الظلام .

*

مرَّت على مخدتي ليلة مشتعلة تشبه سيجارة ترفض أن ينتهي جمرها ، لم أتمكّن من النوم ، كنت أحترق ببطء ، أنظر إلى الجدران ، تأخذني الحيرة من نمط الحياة التي أعيشها بين رعب هناك وخوف هنا ، القليل من المال الذي حصلت عليه أو احتفظت به من حسنات الوظيفة يوشك أن يختفي ويحترق مع هذا الجحيم الذي أصحو عليه ولا أنام برغم إنهاكي وطول نهاري .

- هو الآن يموت حقاً ، الجسد ذابل تماماً ، والشهيق كما ترى .

- ألا يحتمل أُسبوعاً غير هذا؟

- كانت لي تجربة مع إنسان مثله ، مات في وقت أقل منه .

- قل للطبيب أن يفعل شيئاً .

- نعم سيدي ، شكراً .

- شكراً؟ على أي شيء يا غبي؟ هل نسيت بأنه مجرد واحد منهم؟

- عفواً سيدي ، لقد نسيت فعلاً .

جسدي ينتابه النحول (ذاكرة السراديب تنهش لحمي ، تأخذني إلى جحيمها كما الحمّى) عليلٌ في الليل ومرعوب في النهار ، لم أعد غير هيكل يتحرك بأزرار خفية ، أمامي - على جدران غرفتي - حسون الباز وعبد الباري وعزام اللذيذ الذي طار عن الأرض مسافة مترين ، ومشنقة تتأرجح شرقاً وجنوباً ، أكاد لا أمسك بين أصابعي غير سؤال واحد :

- كيف تراني سأموت؟

هل أنا في الطريق الصحيح؟ الأدغال تتسابق أشواكها نحو جلدي ، تأخذني تلك الحمّى إلى حالة من الذل ، يركبني الذل صوب شهوة نامت في جسدي أكثر من ثلاثة آلاف يوم ، لا أملك من الفرح غير امرأة - لم أرها طوال ما فات من عمري - أحببتها برغم أنفي ، لا تعرف عني أي شيء ، أريدها أن تكون لي مثوى وشهيقاً وابتسامة ، أنا المخادع الذي جاء يسرقها من رجل ميت ، ربما جئت أسرقها من (حلم) يلبس حياتها ويخدعها معي ، لكنني أوهم نفسي بالنيّة الحسنة ، وحدها من ينقذني من العار الذي أحسّه يمشي معي ويعلّمني الكلام وتزويق الخدعة .

الحُب؟ هذا الشيء الغامض الغريب ، يخلّف ناراً في أحشائي ، ناراً تأكل حتى لا يبقى سوى رماد ، محض رماد في أسفل القلب ، في مسارب الجسد الصامت ، الجسد الذي طالت عليه الخسارة ، أضحك من هذا العالم ، أعني هذا التركيب البهلواني الفاجر ، أن أحب امرأة لم أرها ، امرأة عاشت في تاريخ رجل جمعتني به الغرف الانفرادية والرعب . . .

أتراني أنقذ جلدي بهذا الحب ، أو أتطهّر من أوجاع لا تناسب ضعفي؟ تالف ومنسيّ في باطن حجرة معتمة لا ضوء فيها سوى امرأة معلّقة على الجدار .

مشيتُ اليها بعد يومين ، وقبل أن أخترق دخان سيجارتي وأطرق باب البيت ، رأيتها تسقي شجرة موز أقصر من فخذيها ، تلبس ثوباً يشبه قشرة الموز ، رائحة المكان تنفث الموز ، طولها ينحني كما

الموز أيضاً ، هكذا اجتمع الموز في مكان واحد أشمّ رائحته وأراه وأنا أتحرك وراء باب الحديقة عساها تشعر بي قبل أن تفتح بابها .

- مساء الخير .

لملمتْ ثوبها بسرعة ، ثم اقتربت مني دون أن تفتح الباب ، أزاحني شيء من الرعب وأنا أبتعد إلى الوراء ، ماذا جرى؟ هل تراها اكتشفت لعبة الهويَّة؟ أم عاد عبد الباري من حقيبة الموت؟ أم تراني أخطأت بشيء كما يخطىء أي مجرم من النوع المتمرن البليد؟

أغلقتْ صنبور الماء ، كاد صنبوري أن يتبول خوفي ورعشتي في شبر تحت سيقاني ، أراها تغلق الماء وأنا أغلق صنبوري في وقت واحد ، إذا بها ، لا أدري ما السبب ، تفتح الصنبور ثانية ، ثم عادت نحوي ومدّت أصابعها تفتح الباب ، هذه المرة - وهي تفتح الباب ببطء غريب - كنت أخاف ابتسامتها ، كل شيء غامض في هذه السيدة التي تغلغلت في بنائي وتحت ضلوعي ، قالت وهي تمسح بضع قطرات من الماء علقت فوق أهدابها :

- تفضل .

أجلس على جبل من الدبابيس ، وتحت كتلة اللحم المقسومة إلى نصفين ، أجلس على تلّ من المسامير ، أي خطأ رميتُ إليه نفسي ، لماذا لا أعترف لها بحبي وأحكي لها ما جرى في سراديب الموت ودهاليز التعذيب؟ ألا يمكنها أن تحبني إذا ما حكيتُ عن زوجها وصورتها التي راحت تجري مع أيامنا وتنام تحت مساماتنا في الصيف والشتاء والخريف؟ لا ربيع في تلك الأيام ، الليل يكبر ، يمزّق

ضوئي ، يلتفّ على عنقي ويزرع في عيني عبئاً أبدياً لا أنفك منه ، ماذا تراني سأقول للدم إذا ما تخثّر في جسدي؟ هل فات أوان الحياة؟ وجه الحبيبة صار يلاحقني ، كان حنطياً رائعاً ، أخاف اليوم الذي يصبح فيه (صناعياً) كما أي شيء حولي .

لماذا أفرض على نفسي هذه اللوعة وهذه القشعريرة المغمّسة بالخوف؟ أنا مطمئن إلى شيء واحد ، هو أن (جثة) زوجها عبد الباري لن تسلّم إليها ، ولن تكتشف الحقيقة إلا بمعجزة ، أدري وحدي ، أن من يمضي إلى هناك ، لن يعلم بمصيره أحد إلى يوم القيامة ، ومن يسلم من صناديق القتل - ومن قطرات التذويب اللحمي - فقد كتب له الله حياة ثانية ، لكنها حياة مزحومة - ستبقى هكذا مزحومة - بالرعب والكوابيس والشكوك حتى يحين الموت التالي .

رأيتها تجلس أمامي بعد غياب دام حفنة من نبضاتي ، ذهبتْ عني بسرعة وعادت بسرعة ، غيّرت فستانها المبلّل باشتهائي ، مشّطت شعرها ، ما زال بعض البلل الرباني يغطّي مسامة هنا ، ربما مسامة هناك تحت الفستان ، أحسّها وأكاد أعرف مكانها ، كنت أبتسم - يا لغبائي - دون سبب ، بينما رحت أسمع أُغنية طال اشتياقي إليها :

- أعترف بأنكَ حيَّرتني ، هل تفهم ما أعنيه؟ فكرتُ كثيراً بما قلته لي من غرائب وعجائب ، كنت أظنها «يُسرى» صديقتي من أخبركَ بأسرار هذا البيت وأسرار قلبي ، الآن ، بصراحة ، لا أدري ، أعني لا أفهم كيف أُفسِّر بعض كلامك ، وكيف أكون مطمئنة مع نفسي قبل

أن أطمئن إليك؟

كنت أريد أن أسأل عن «رشا» لكن «عواطف» ما تزال تحدّق إلى سقف الغرفة وهي تقول بصوت ليّن جميل مخلوط بالغرابة والغموض :

– أما الآن ، أعني طبعاً كلامك ومعلوماتك وأرشيفك المُدهش هذا ، فما عاد من تفسير عندي سوى أنّكَ عثرت على مذكرات عبد الباري ، لا بد أنه كتب الكثير عني ، عن ماضينا ، عن كل ساعة عشناها معاً . . . يا إلهي ، أكاد لا أفهم أي شيء .

كنت أبتسم ، كما يفعل مدرّب القردة :

– لم أكتب أي مذكرات طوال حياتي ، هذا شيء لم يخطر على بالي ، أنت تعرفين ذلك ، مذكرات؟ يا لها من لعبة مضحكة .

قالت «عَواطف» وهي تدوس بلسانها على كل حرف تنطق به :

– أنا لا أتكلم عنك ، أنتَ تعرف ذلك حتماً ، أنا أحكي عن مذكرات عبد الباري ، زوجي ، قلت بوقاحة مهذّبة غطّيتها بهدوء ورزانة :

– أنا عبد الباري ، لا أفهم كيف تفكرين يا «عواطف» ، أنا عبد الباري ، أدري بأنني تغيّرت فعلاً ، وهذا أفضل قليلاً من الموت . . هل أنت بحاجة إلى دليل غير ما ذكرت؟ حياتنا كلها أمام عيني ، ماذا تطلبين مَني؟

نظرت إليها ، أتوسل شيئاً من الشفقة في عينيها ، رأيتها تتحرك بشيء من العنف وهي تمسك (بنصرها) الأيسر بأصابع يدها اليمنى ،

ثم فتحت أصابعها تشير إلى فمها :

- هل تسمح؟

- طبعاً ، هذا شيء يريحني أنا أيضاً .

إنها تريد أن تدخن أمامي ، كم أسعدني ذلك ، أعطيتها سيجارة ورميت ثانية قرب لساني وأنا أقول بحب حقيقي :

- لا بد أن السجائر صارت أكثر من ثلاث .

قالت بصرامة مؤلمة :

- أرجوك ، أرجوكَ فعلاً أن تكفّ عن هذه المعلومات التي يعرفها حتى . . كان عقلي يعمل بسرعة ، لم أقف لحظة واحدة عن رسم بقية الموقف ، أقاطعها بقول دسم لذيذ وقح :

- بلا غضب يا «عواطف» ، بلا غضب رجاء ، أنا لا أبيع ولا أشتري هذا الصنف الغالي من المعلومات ، إذا كان الأمر كذلك ، اخبريني بكم سأشتري مثلاً ، بكم سأشتري (الندبة) القهوائية في هذا المكان؟؟

*

أي أبله يعيش في جمجمتي؟

كنت أشير بسبابتي إلى الجهة اليسرى من (وركها) اللدن ، إذا بها تنهض مثل أفعى ، لم أعثر على كلمة أخفف بها ما رأيت ، كانت «عواطف» قد اختفت ، لا أدري كم طال بي الوقت وأنا أجلس وحدي على جبل الدبابيس الذي اخترق لحمي وعافني محض رجل مهزوم لا يدري حقيقة المسافة التي راح يقطعها بين مسمار هنا ونار هناك؟ أجلس مع هذا الأبله الذي يزاحم رأسي ، أتمنّى أن أمد أصابعي

إلى عنقه وأنتهي من امتحاني الأخير .

لا أدري من ساعدني على النهوض ، هل نهضت فعلاً؟ أبحث عن «عواطف» بصوت ذليل ، لم يكن من أحد في البيت ، لا رشا ، ولا التلفزيون ، ولا هسيس قطة عابرة أو صوت بشريّ سوى رعشة شهيقي وأنا أردد اسمها بكثير من العطف ، وربما البلاهة أيضاً :

– «عواطف» ، أنا آسف ، كان لا بد من ذلك ، تذكّري أنني زوجك ولي ألف حق عليك ، «عواطف» ، قولي أين أنتِ؟ كان لا بد من ذلكَ والله العظيم .

هل فتحت السماء بابها في تلك الساعة من زمني المخنوق؟ أظنها فعلت ، وإلا ، كيف أُفسِّر ذاك الصمت النبويّ الذي رأيت وتحسست؟ بينما أتحرك في ممرات البيت الصغير ، كانت «عواطف» تخفي رأسها خلف نصف جدار خشبي يقطع البيت إلى مثلث لم يخبرني به عبد الباري (ربما صارت ابنته رشا هي التي تخطّط شكل الحياة في هذا البيت الناعم بعد غيابه الطويل) .

كنت أُريد أن أقترب منها ، لكن احتراقاً راح يجتاحني كالوميض ، يلبسني عباءة ويخطفني من بين يديها ، ثم يرميني ثانية على جبل المسامير في غرفة الضيوف ، رجعتْ ذاكرتي إلى عبد الباري ، كنت قد نسيتُ بعض ما قاله عن الجزء الثاني من شخصية زوجته ، إنها لا تقرب الصوم ولا تفهم في الصلاة ، لكنها تأتي على ذكر (الله) في كل خطوة وتحت أي ظرف طارىء . . صحيح أنها تشرب كأساً من البيرة كل خميس ، لكنها تكشف عن دواء يخفف نسبة الرمل في الحالب ،

هكذا سمعتْ ربما ، ثم إنها تستغفر الله بعد كل رشفة وتبتسم إذا ما رأت الكأس فارغة ، وأحياناً ترميها بشهقة توحي لمن يراها أنها أنجزت عملاً خارقاً مرهقاً . . لا أتذكر أنه قال شيئاً عن خشونة في طباعها أو غضب يأخذها إلى الصراخ ، إنها - هكذا ينطقها عبد الباري - فوق طقوس المحلات الشعبية ، ملاك من زمن منسي ، امرأة من الصعب أن تتكرّر .

لم أسأل ما هي نسبة الصواب في كلمات عبد الباري ، فقد جرجرني الحُب إلى حالة من البلاهة المخلوطة برحيق المراهقة ، وأكتفيتُ بها كما رأيتها ، كما هي أيام كانت (معلّقة) على الجدار . . أظن أنها حالة من العبادة والذوبان .

بعد وقت أقصر من أسئلتي ، رجعت «عواطف» إلى مكانها ، تشبك أصابعها في قبضة واحدة تسأل بشيء من الشك والطرافة :

- هه ، ماذا تعرف أيضاً؟

قالت بهدوء يلفّه الغموض :

- اخبرني ماذا تعرف من أسرار؟ أنا أُحب هذا النوع من الغرائب المنسّقة التي لا تحصل إلاّ في السينما والقصص البلهاء الجميلة التي يصدقها البشر . .

قلت بإصرار أحسد نفسي عليه :

- أنا لا أعرف أي شيء سوى ما كان بيني وبينك من خفايا وأسرار وحياة ، بالمناسبة ، لا يناسبك أن تسخري مني بهَذه الطريقة . . لا شيء عندي سوى خفايانا وأسرارنا معاً .

قالت بسرعة كأنها تريد أن تسحبني من نفسي :

- وعيوبنا؟ ألا تعرف عيباً أو خطأ مما جرى بيننا؟ هل كانت حياتنا كلها نعيماً وعسلاً؟ هذا ، إن كنت في حياتي أصلاً .

ذلك (يا للبلاهة) ما لم أسمعه ولم يخبرني به عبد الباري ، أي نوع من العيوب؟ الزواج مشروع مكهرب ، هكذا قال عبد الباري ، لكنه لم يطرق أبواب ذاك الصنف من الهموم ، بل شطب عليه تماماً ، أرادها أن تكون (مثلاً) وأنموذجاً بين نساء الأرض ، صارت «عواطف» بالنسبة لي - وهي كذلك بالنسبة له - فوق أي وصف ، لا يمكن أن تقترب إليها العيوب ، إنها ، بهذا المعنى ، امرأة من عصور الغيب ، قد تشرب كأساً من البيرة أو تحرق ثلاث سجائر في نهار واحد ، أو تلتهب شبقاً عند (ساحل البحر) أو تعاند نفسها وترفض أن تلبس غير الثياب السود على لحمها البض الساحر ، إلاّ أنها ستبقى فوق المألوف من صفات النساء .

كنت أبتسم ، محض أبله لم يعثر على أي عيب في الدنيا :

- بعد هذه السنوات ، من العيب أن أذكر أمامك ما كان من عيوب ، كل واحد منا أخطأ في حق الثاني مرة واحدة .

من أين أتيت بتلك المرة الواحدة؟ لا أدري حقاً كيف نطقت بتلك الكلمات ، هي أنقذتني فعلاً ، بل وصارت «عواطف» قاب قوسين من القناعة ، اذا بها تفتح فمها عن أعرض ابتسامة وهي تهمس :

- بدأت أخاف على رأسي .

تمسك جبينها وتبتسم :

- ليس أمامي غير أن أُصدِّق ، أنا أدري ما يعنيه السحر ، لكنه لا يأتي على معلومات صحيحة بهذا الحجم الذي دار بيننا .

*

إذن ، ها هي السماء تفتح أبوابها جميعاً ، فماذا سأفعل في الثواني التي تلاحقني أمواجها وتفرض سلطتها على إرادتي؟ هل أنهض وأمسك لحمها بين أصابعي وأصرخ بها :

يكفي ما مرّ بنا؟ يكفي ذاك الجحيم الذي أحرقنا معاً؟ أم أنتظر صراخها حتى تغلق بابها على بحر الشكوك الذي طال فيضانه ، وكاد أن يغرقها حيث لا نجاة من الظنون؟

الوقت يلاحقني بقسوة ، أمواج الوقت تفرض شلالها على أوردتي ، لا بد من شيء أفعله فوراً ، قلت بسرعة ، لم أكن غير ممثل ينتظر تصفيق الجمهور قبل أن تسدل الستارة :

- تعلمين كم أحبكِ يا «عواطف» .

أقترب شبراً :

- لكنك لا تدرين ما حلّ بي طوال تلك السنوات .

جسدي يقترب بهياج خفيف :

- أنا لا أدري حقاً كيف أعوضك عما فات؟ أنا لا ذنب لي في ما جرى ، لم أكن غير شاهد على جريمة لا أعلم عنها أي شيء . . هُم يسمونها جريمة ، وأنا دفعتُ الثمن على شيء لا يستحق يوماً من عمري ، الآن ، لا بد أن تأخذ الحياة طريقها الصحيح .

هل تراني أخطأت؟ هل سقطت الفريسة في جبُ الصياد؟ من الذي نصب الفخ أمام سعادتي؟ لماذا قالت :

- جريمة؟ ماذا أسمع؟ أنتَ لم تكن غير شاهد على جريمة لا تعلم عنها أي شيء؟ ما هذا الكلام الذي أسمعه منك؟ هل غسلوا مخّك في ذاك المكان؟ هذا يعني ببساطة أنك لست عبد الباري .

بسرعة ، تذكرتُ ما قاله عبد الباري قبل أن تأخذه العلّة (أن زوجته تدري بأسراره كلها) ولا بد أنها على علم بما كان يفعله مع حسون الباز وشلّته ، لذلك قلت لها وابتسامة الثعلب تملأ وجهي :

- اسمعي ، لا بد أن أعتاد هذه الكلمات ، قلتها لهم مئات المرات وأنا تحت أجهزة الموت والتعذيب ، والآن ، اسمعي ، ينبغي أن أتعلّم تكرارها لئلا أسقط في الفخ الذي لا بد أنهم وحدهم من يعرف كيف أسقط فيه . . هل تفهمين ما أعنيه؟ هذه الكلمات هي التي أنقذتني من الهلاك .

لا أدري لماذا تضحك مني وهي تهمس بصوت بطيء ما زال غامضاً :

- يبدو أنكَ ، أعني ، هل تراكَ ظننت بأني . . عفواً ، لا يمكن أن أُصدّق أبداً بأنك عبد الباري ، أرجوكَ أن تفهمني ، لا تزعل ، أنا ، ليس عندي ذرة شك في هذا الأمر ، أنت لست زوجي ، أنا . . . دعني أقول . . .

سرقها الصمت لحظة ثم سمعتها :

- كل ما قلته لي صحيح ، أعني صحيح كما لو أن ذلك ما يحكيه عبد الباري نفسه ، وقد يكون عندك ما هو أكبر من ذلك ، لكن ، أعني ، عفواً ، ليس من الممكن أن أصدِّق . . يا إلهي كيف أخبرك بذلك؟

كان الممثل قد أسدل الستارة بنفسه :

- يكفي هذا ، كان يمكنني أن أفعل ما أريد بحكم القانون ، أعني بحكم كوني ربّ هذا البيت ، يعني ، كان عليّ أن أدخل البيت كما يدخل أي رجل إلى بيته ، لكنني ، أعني أنك تفهمين ما بيني وبينك من احترام وحُب . . ثم انني ما زلت (مطلوباً) منهم وقد يجرجرونني إلى دهاليزهم في أية لحظة .

نظرتُ إلى عينيها وقلت بشيء من الوقاحة :

- حتى أنني لم أتمتع بثيابك السود . . هل ما زالت سوداء كما تركتها؟

قالت «عواطف» بوقاحة أجمل وأخطر :

- كنت أدري أن عندكَ الكثير من خصوصياتي ، بل ، ربما كنت (عبد الباري) فعلاً ، لكن ماذا أفعل مع إحساسي أولاً ، ثم ، مع الحقائق التي لا يمكن أن تدري بها أبداً؟

برغم ذلك ، كان يقيني يتدحرج من القمة صوب الفريسة ، قلت لنفسي : عليكَ أيها الأحمق البارد أن تقترب منها ، قل أي شيء من

الغزل ، أنتَ في صميم اللعبة ومن الخطأ ترك هذا البركان حتى يطفئه الخذلان والخجل ، لا تصدِّق هذا الكلام الذي تنطق به ، ثم إنها امرأة (مهملة الأنوثة) منذ تسع سنوات وأكثر . . اقترب أيها الأحمق .

*

أرفع جسدي ، لا أملك الشجاعة ، هذا النوع من النساء يحتاج إلى قوة جيش حتى ترغمه على الرضا . . أسمعها تقول :

- أرجوك أن تبقى ، عندي كلام يهمك جداً ، هل تحب أن تشرب شيئاً؟

عدتُ إلى جبل المسامير ، هذه المرة كانت كمية المسامير قد تسرّب نصفها من تحتي ، رأيتها تحدِّق بي ، كمن يبحث عن شيء ضائع ، هي التي اقتربت مني ، لم أكتشف تماماً أي امرأة كانت «عواطف» حتى سمعتها تهمس في دمي :

- إسمع . يمكنك البقاء في البيت !

البيت ، صار بحراً أغرق فيه ، بين أمواجه الباذخة اللعينة ، رحت أهبط تارة وأصعد تارة ، إنني أثقب الحديد بمسمار لحمي ، هناك ، على سرير خشبيّ ، كانت السماء تمرح معي وتسرح بي ، ليس من بيت يخفي عار نفسي ، قلت كلا ، أصرخ ، ليس من أمل في شيء ، الحياة أغلقت أبوابها بقوة ، هل سنهرب معاً؟ إلى أين؟

من خلف صدى بعيد ، أسمعها تهمس في وجداني :

- يبدو يبدو أنكَ لم تسمعني ، قلت ، يمكنك البقاء في البيت ، اليوم وكل يوم ، إحساسي يقول إنك إنسان معقول .

لم أسمع بقية الكلمات ، ما سمعته كان يكفي ، والذي سمعته لم يكن غير : يمكنك البقاء في البيت ، اليوم ، وكل يوم !

الفصل الثالث

«هناك نوعان من الناس ، الأول في السجن ،

والثاني ينبغي أن يكون فيه» .

مارسيل آشار

في تلك الليلة ، أعني في الليلة التي ترفض أن تشبه بقية الليالي ، سقط النجم المذنب ثلاث مرات ، تحسستُ الندبة القهوائية عند (ساحل البحر) الذي سبقني إليه عبد الباري ذات يوم ، ونزعتُ عنها الثياب السود بأصابعي ، لم أحترم أصابعي طوال عمري كما في تلك الليلة ، مشينا على ندى (ساحل البحر) نغنّي فراق تسع سنوات من الوحشة والجوع واللهفة والسعير ، جوقة محبّين في فراغ المحلة ، نسمع هسيس القطط وعراك الديكة فجراً .

بين نجم يحترق ونجم يأفل ، كومة سجائر وبركان ودخان ، جئتُ بقلبي كأساً تشرب منها البيرة طوال الليل ، طوال رعشتي وخوفي ولذتي وبكائي الخفيّ الذي لا يراه سوى الله ، وداعاً لتلك الطقوس الفقيرة ، ها هي السيدة المعجزة أمام يدي ، أسكرها الفراش المهمل من أيام المغول ، أستر عورتها بدموع تذرفها مساماتي وأختفي عن

الجنون بهذه اللوعة التي انحسرت مع ذيل فستانها وهي ترميه قرب الندى ، لم تسأل عن الفروق بيني وبين عبد الباري ، كنا نعمل كفريق عبقريّ ، هكذا خلقنا الشيطان من ألف سنة ، وهكذا - قلتُ هكذا بصوت أقرب ما يكون إلى صوت الديك - سنبقى حتى نذوب .

أسكن في شعابها ، محض طفل غنيّ ، له الحياة وما فيها ، مدلّل في سرايا لحمها الطريّ ، أين رشا؟ في بيت خالتها ، كنت أعرف أنكَ ستأتي هذا المساء ، عندي ورم في الروح لا بد أن يقلعه الشيطان من صدري . . أظنكَ هذا الشيطان الذي جاء من باطن الأرض ليرحم صبري وينام في وجعي . .

كنوز من الكلمات ، كنوز من الغرائب ، لم أسمعها منكَ يا عبد الباري ، كنت بخيلاً برغم كلامك الذي امتد في عروقي وزاحمني على النعاس ، عيني عليك يا عبد الباري ، أخفيتَ نصف كنوزها عبثاً ، ها هي تفتح أبوابها دون إشارة مني (هل أعتذر منكَ يا صديقي على كنوزك التي ظهرت)؟ قلت لها ، أين رشا؟ أي أب منافق مضحك ، إخرس أيها الكذّاب ، خلاص ، افتحي أزرار جلدك يا مولاتي ، الصورة ما زالت على جدراني ، على بقع حمراء من ثيابي ، لا يمكن غسلها بماء العالم كله ، أريد أن أرى حرماني كله وأنا أدخل نحوك ، صومعة أهدمها على صومعة مهدّمة ، حيث تصرخين أيتها النبيَّة السافلة (كم أحببتك) وكم أنا خائف على هذا الورم الخفيّ لئلا يكبر ثانية إذا ما اختفيت - سهواً - في سراديب الموت .

- بس ، هذا يكفي ، لا أريد أن تتذكر .

كان الموت معي ، أشمّه مثل نبات الصبير ، أحس به يتغلغل مثل الماء تحت إبطي ومن فوق رأسي ، يدخل ، ماذا أفعل به؟ إنه يجرني إليه ، وأنا أصرخ مثل طفل ، صراخي لا معنى له ، الغضب الساقط من جسدي دون معنى ، يبقى البيت حولي ، يبقى كل شيء على حاله وأنا أتساقط ، أتناثر مثل أوراق صفر من شجرة هرمة ، أتساقط ، ماذا يمنع ميتاً - سأكونه قريباً جداً - من الادلاء بأخطائه كلها وجرائمه جميعاً ، ماذا يمنع أن يعترف بذنوبه وحماقاته وترهاته؟

- قلت لكَ هذا يكفي ، لا أُريدكَ أن ترجع إلى هناك ، أنا معك الآن ، ألا ترى؟

*

سقط النجم المذنّب مرة رابعة ، وانسكبت رغوة البيرة فوق الرقبة ، قلت لها : علينا أن نتزوج ثانية ، نقترح اسماً غير (عبد الباري) لئلا يطاردوا هذا النعيم الذي نحن فيه ، قالت : كما تريد ، يمكنك أن تفعل ما تشاء .

- ورشا؟

- رشا ستفهم الحال في وقت قصير .

لم تنطق اسم عبد الباري ولا مرة واحدة ، كنت أريد فك اللغز الذي أغلقته «عواطف» وراء ملامح لا يمكن اختراقها من أول هجوم

للمذنّب الذي طاف حولها ثم نام فيها واحتوى عنفها ورغباتها ، حتى هجوم الديك الذي شاركنا الفراش عنوة . . . من أكون ، إذا لم تنطق أبداً باسمي؟ هل كانت كما هي الليلة أيام كان عبد الباري يمضي بها صوب ساحل البحر؟ هل تسخر مني هذه الجنيّة العجيبة أم تراها تسخّرني لشهواتها؟ قلت لها : هل أنت سعيدة؟ تضحك من كلماتي ، تهمس : ألا تظن ذلك؟ لكنها أبداً لم تنطق اسماً يشير إلى رجل معها فوق هذا الفراش المخبول ، مع أن النجم المذنّب كان يسقط فيها للمرة الخامسة .

أسأل نفسي : ماذا تراها تقول عني؟ ثم أبتعد إلى ابنتها :

- اخبريني ، ماذا عساها تقول ، رشا الصغيرة؟

- إنها طفلة ذكية ، رشا أذكى بكثير مما تظن .

لا أدري أي شبح غريب راح يمسح جلدي ويسحبني إلى النوم ، وقبل أن أعتذر منها على نعاسي - في السابعة صباحاً - رأيتها تسابقني إلى بقية الحلم الذي دام عشر ساعات من الهجوم دون قطع أو صمت ودون لحظة خسارة حتى بحجم ندبة قهوائية في زاوية من لهاثنا الدموي العجيب .

تسللت الحياة إلى البيت الصغير ، أعمل في الحديقة ، أصبغ بابها ، أرى الضوء يمشي لصق «عواطف» ، لم تسأل رشا عن (الغريب) الذي دخل البيت وصار يأكل وينام ويضحك فيه ، بل صارت تساعدني في تنظيف هذا العالم الصغير ، نمسح التراب عن

الباب الخشبي المزخرف بالأجراس ، نبحث في كل زاوية عن فكرة أو ديكور أو (بلبل) يكرر أقواله بصوت مبلّل بالهيام .

- بابا .

تلك الكلمة أبكتني وأربكتني ، ما إن أسمعها من رشا ، حتى تدور بي الأرض ، صارت (بابا) خمرتي ، أسكر بها عشرات المرات كل يوم ، ربما تمنيت ، لا أدري لماذا ، أن أهرب من البيت لئلا أفضح نفسي بنفسي . . كانت تلك الكلمة الساحرة أكبر من سحري وأعلى من صحوي وانفلاتي وقوتي .

*

بعد يومين من صياح الديكة الذي نسمعه معاً ، كنا قد مضينا إلى (ساحل البحر) كما يفعل العشّاق الصغار ، شبعنا من السجائر المغمّسة بالنعناع ، من البيرة التي طمسنا في رغوتها الكمثرى ، بعد يومين من العيش في الجنَّة ، تمّ اختيار (سلمان يعقوب) اسماً يناسبني ، وأعطيتها الحق أن تناديني (عبد الباري) عند ضفة النوم أو على ساحل البحر الذي نسافر إليه ليلة بعد ليلة ، لم أعد أخاف الفروق التي تسألني عنها - حال اكتشافها فجأة - فقد تمّ قراني عليها باسمي الحقيقيّ وانتهى كل شيء . . وبرغم ذلك لم أتمكن من تفسير ابتسامتها الخفيّة ، في كل مرة أحاول فيها أن أثبّت (كم أنا عبد الباري فعلاً) كانت ابتسامتها الغامضة تضحك من ثيابي وكبريائي

وتوشك أن تصرخ بي : كفى أيها البهلوان .

أول هدية جئتُ بها ، كانت الحذاء الذي أعرف لونه ونوعه وكعبه ، لم أترك في ذاكرتي من كنوز (عبد الباري) أي شيء إلاّ ومضيتُ أُحقِّقه على أنه من كنوز ذاكرتي ، برغم أنها تشكرني وتبتسم ، لكن خيطاً من الظنون يبتسم معها ويخربشني مثل قط خبيث .

قلت لها مع كمية من الصبر :

- ابتسامتك يا «عواطف» ، لا أتمكن من تفسيرها مطلقاً .

قالت بغموض أكبر :

- وهل تمكنتَ - يعني - من تفسير كل شيء ولم تبق سوى ابتسامتي ؟ !

قلت وأنا أمسك يدها بين أصابعي :

- لم أكن غبياً في حياتي كما أشعر بذلك الآن ، اخبريني ، ماذا وراء ابتسامتك المجنونة هذه؟ لا أظنني رأيت ابتسامة كهذه طوال ما مضى من حياتنا معاً .

قالت وهي توهمني ببراءة ابتسامتها :

- أنت زوجي الآن ، أليس كذلك؟

قلت بالبلاهة التي تركها جدي فوق جلدي :

- وماذا يعني ؟

قالت وهي تبتعد قليلاً :

- ماذا يهمكَ بعد ذلك؟ اعطني سيجارة وتعال ننسى .

ماذا يهمني؟ هناك ثغرة بين الكلمات ، لا يسعفني ذكائي على اكتشافها ، ثغرة بحجم الإبرة تكمن بين ابتسامتها و(ماذا يهمني) . . . بينما دخان سيجارتها لا يقول غير أننا بخير وأن لا خوف هناك على أي شيء في هذه المملكة الصغيرة .

رشا صارت (ابنتي) والخميس يومها الذهبي الذي نرحل فيه إلى النجوم والعشب والهدايا ، وفي اليوم الذي قالت فيه : أنت أحسن بابا ، كان أول يوم بكيتُ فيه بعد خروجي من سراديب الموت . . لعل القبلة التي رمتها على خدي هي التي صنعت (قراري) الثمين أن أحيا وأموت من أجل هذه العائلة المنمنمة .

- ماما قالت إنك أحسن بابا .

فطنت ثانية إلى ابتسامتها ، أعترف أن الخوف ينتابني بين نوبة عشق وفورة اشتهاء ، أن يظهر (عبد الباري) من باطن الأرض وينكشف أمري ، حتى أنني لم أعثر على (ردّ فعل) إذا ما عاد صديقي هذا سوى انتحاري أو هروبي إلى أبعد بحر في مجرات الكون . . لا أريد أن أتخيّل هذا الرعب ، إنه فوق صبري وأشد قسوة من أيام سجني ، كلا ، لا أُصدق أن عبد الباري ما زال حياً وهو بين أنيابهم القذرة .

أيُّ سوء (لا معقول) في الجسد الانساني البغيض ، أي شيطان دخل إلى قفصي ! ذلك أنني في لحظة خاطفة من الصمت ، تمنيتُ أن يكون عبد الباري قد اختفى تماماً عن الحياة ، لا أريد أن أدخل قاعة

هذا الامتحان الفاجر المذلّ ، هذه المملكة التي فتحت أبوابها(بالحيلة) صارت مملكتي أنا وعليها توّجتُ نفسي ملكاً ، ها هو الرعب يجتاحني ويخترق ضلوعي وأنا أفكر في عبد الباري : أن يكون ما يزال حياً وأنه سيأتي على حين غفلة ويطردني كما أي كلب أجرب في حديقة ناعسة .

لكن أيامنا ، أو لياليا ، أنا و«عواطف» ، مرت في عرس لم تشهد الدنيا أعمق من لذائذه وطوله ووحشيته معاً ، كنا ننتقم من شيء يسكن بين الضلوع ، لا ملامح له ، لكننا نراه ونطعنه بالحب ، ثم نشعر به يريد أن يهرب منا ، لكننا نطيل الليل باللهاث ونصعقه بالكلام العسل ، كنا ننتقم ونستمر على ساحل البحر ، حتى بكينا - ذات مرة - وكلانا لا يصدق ما جرى وهو يرى النجم المذنّب يسقط سبع مرات في ليلة واحدة !

صحيح أن «عواطف» لم تعد تسأل غير مرة ونحن في شارع النهر : كم مرة جئنا هذا النهر؟ ومرة ذبحتني بإلحاحها : من رأينا في بسكنتا؟ هل تتذكر أول ليلة هناك في بيروت؟ تسألني دون أن تفارقها ابتسامتها الغامضة اللئيمة ، قلت لنفسي : ذلك ما لم يخبرني به عبد الباري ، أو ربما ضاع من حزمة معلوماتي ، ربما كان ذلك في العام الأول والشهر الأول من مجزرة الانفرادي وتسربت من جمجمتي وذاكرتي في السنة الثانية . .

يمضي كل ذلك في نوبة حب هائجة همجية أو مع رغوة البيرة

التي تراكم جيشها في صف طويل من القناني يمتد خلف البيت ، إنها تبتسم بعد كل شك أو خطأ أسقط تحت خيمته ، لماذا يا عبد الباري لم تخبرني بذلك؟ لماذا يا صديقي المسكين نسيت أن تحكي عن أول ليلة في بيروت؟ وكيف لي أن أرجع صوب أول من (رأينا) في بسكنتا؟

حتى إن اخبرتني بمن رأينا ، ماذا تراني سأقول ، وأنا لا أعرف عن حياتها غير الذي ذكرته واكتفيت به؟ هل بدأت أدفع الثمن؟

*

في صباح الثلاثاء ، بعد مرور خمسة شهور من النعمة ورغوة الفرح التي طفحت على حياتي (معها) سألتني «عواطف» ، بينما أمشّط شعري أتهيأ للخروج :

- يبدو أنكَ لا تدري أن اليوم عطلة الأول من محرم؟

لم أتذكر ذلك فعلاً ، كنت أبتسم أمام زوجتي وأنا أتحسس أنفها بإصبع مهذّب :

- أنا لست موظفاً يا حبيبتي ، ولا شأن لي بأيام العطلة الرسمية . .

قالت مع ابتسامتها التي ترعبني :

- لكنك كنت كذلك ، لماذا غيّرت مهنتك؟

كان ذلك أهون من بقية امتحاناتي معها :

- هذا ما فعلوه بي ، القرار - كما تعلمين - قرارهم ، من يدري ، ربما أعود إلى وظيفتي ، طبعاً ، بقرار منهم أيضاً .

- لا أريدك أن تتعب ، يكفي ما جرى لك ، لعنة الله عليهم .

سحبتُ أصبعي وأنا أهمس قرب عنقها المرمريّ :

- إذا أحببت أن أبقى في البيت ، تلك مسألة ثانية .

ليتني بقيتُ في البيت ، أو متُ ذلك الصباح ،لئلا أرى كلاب السراديب المسعورة تنتظرني عند أول الشارع ، ها هم القتلة يسألون عن حسون الباز :

- جئناك ، ونحن على يقين بأنك تدري أين يختفي .

قال الثاني وهو يضع أصابعه على جزء مدبب من مسدسه :

- سنعطيك فرصة أخيرة ، اسمع ، إما أنت وإما حسون الباز ، هل تفهم؟

قال الكلب الثالث الذي طال صمته :

-يمكننا أخذك فوراً ، أنت تعرف أي مصير ينتظر الخونة؟

الأول كان يغنّي :

- حتى أنك لم تكلف نفسك أن تخبرنا بعنوانك الذي تغيّر . .

أسمع نباح الثالث وهو يبتسم :

- ما دمت تزوجت أرملة عبد الباري ، هذا يعني أنك تعرف الكثير عن هؤلاء المتآمرين الكلاب . .

وقبل أن تأخذهم أسوأ غيوم الأرض ، سمعت صوتاً يقول باستخفاف ممزوج بالحقد والغضب :

- يكفيكَ ما فات من شهور الحرّية . . يبدو أنك لا تستحقها أبداً .

تحركت السيارة بهم ، لكن النباح ما زال يأتي من الكلب الأول :

- عندكَ نمرة التلفون ، اتصل بنا ، لا نريدك أن تخسر نفسك مرة ثانية .

*

ابتعدت بهم السيارة البيضاء مغلقة النوافذ ، لم أتمكن - بعد غيابهم - من تحريك عظامي ، بقيت في مكاني أرجو الله أن ينقذني من الثلج الذي تكلّس فوق لحمي ، قرأت آية (الكرسي) وتحرك أول عظم في كف الساق اليسرى ، ثم طقطق عظم في أعلى فخذي ، وبعد وقت لا أدري كم طال حولي ، مشيتُ مرعوباً صوب البيت ، تسألني «عواطف» عن سبب الصفرة التي تغزو وجهي؟ ماذا جرى؟ اخبرني بذلك يا . . . عبد الباري؟ أول مرة أسمع فيها عبد الباري ملصوقاً على اسمي ، ربما انغرس سكين في ضلوعي ، قلت لها وأنا أتحسس عظامي بيد نصف مشلولة :

- لقد عادوا ثانية .

سألتني بعد نوم عميق :

- كنت تهذي في نومك ، ما رأيك أن نقضي أُسبوعاً في بيت أهلي؟ علينا أن نبتعد عنهم . نبتعد؟ إلى أين؟ لا بيت أهلك ولا أهل البيت ينفعون في الخلاص منهم ، أنا أعرف كيف يفكرون وكيف يخططون ، أعظم حالات الرأفة عند هؤلاء الطغاة أن يقتلوك فوراً لئلا

ترى صنوف العذاب ، هناك في دهاليزهم المعوجَّة وغرفهم الانفرادية الرطبة وأجهزة التمزيق ، ما يرغمك على إطاعة أي شيء والرضوخ تحت (نعالهم) كيما تحمي رأسك من الموت أو الجنون ، نبتعد؟ لم يعد الوقت الذي نحن فيه يناسب هذا النوع من الهروب ، صدّقيني ، أنا عشتُ بينهم ، معهم ، تسعة أعوام ، وأفهم هذا النوع المقرف السافل من البشر .

ماذا ينفع البقاء في بيت أهلك يا «عواطف»؟ لا بد أن أختفي عن الحياة نفسها لئلا يسلبوها بالسكاكين مني ، الحمد لله أنهم تركوني هذا الوقت أشمّ الهواء وأنام على مخدة حب وأصحو مع المطر شتاء ومع الندى في أجمل أيام الخريف . . . هذا كثير جداً ، أكثر مما تظنين يا حبيبتي . . وأعترف بأنهم - هذه المرة - على جانب من التسامح والرأفة والشفقة .

خمسة شهور مرة واحدة؟ أكاد لا أُصدِّق هذه النعمة ، أشعر بأمعائي تتقلَّص ، بعضها يمسك بعضاً ، وحدي من يدري بهذا الجنون الذي يلف الأنسجة ، الجنون الذي كان وما يزال بعض قدري ، أسقط فوق النار ، كان معي عبد الباري ، نتقاسم الموت في غرفة دون ضياء ودون صوت ، نفتش في المزابل عن قطعة خبز تضاف إلى طعامهم الفارغ ، كل شيء كان على النقيض منا ، العشائر الغبيّة ، الشعارات الوقحة المزوّرة ، نطوي جميع أمنياتنا على أمل كاذب بعيد :

- لماذا تتركونه يفتش في المزابل؟

- إنه يقرأ ، دعه يقرأ ، هي أوراقنا ومجلاتنا ، ماذا بها غير ما نعرف من كلام؟

- إنه يلتهم الصحف بين أسنانه !

كنا نقرأ ونأكل ما نقرأ ، نصرخ ونبكي صراخنا الذي لا يسمعه أحد ، والآن هل نذهب ونختفي في بيت أهلي؟ ماذا بك يا سلمان؟ بالله عليك اخبرني ، ألا تريد أن تذهب إلى أبي؟ هناك قد ترتاح بعض الوقت منهم ، لا بد أن تختفي عن أنظارهم يا سلمان .

قلت لها وأنا أضمّ يدي (وجنوني) بين يديها :

- إنهم يعلمون الآن أن أصابعي بين يديك ، هذا البلد كله تحت رحمتهم ، وهم دون رحمة ، لا أدري والله كيف تمكّن حسون الباز من إخفاء نفسه؟ لا أُصدِّق ذلك مطلقاً ، ربما يسخرون من وهم يطلبون مني العثور عليه :

دام الصمت لحظة بيننا حتى قالت :

- حسون؟ هل تعني حسون الباز؟

اختلط ذهني بين جذوع الماضي ، كفّ تماماً عن حساباته في طيات ذاك الدغل المهجور الذي عاش فيه (عبد الباري) مع (زوجتي) أيام كانت في ملكوته الصغير . . لا بد أنها تعرف حسون الباز؟ طبعاً ، ينبغي أن أفكر في نمنمة كلماتي قبل رميها على قارعة البلاهة . .

- إنهم يفتشون عنه في كل بيت وكل شبر ، في المحطات ، الخرائب والبساتين ، البرق ، رعشة انسان يتذكّر غرفة عاش بها تسع سنين :

- حتى أنهم تركوني وشأني ثمناً لعثوري عليه . . إنهم ، اسمعي يا عواطف ، أية قذارة نعيش فيها ، إنهم يريدون مني تسليم حسون الباز ليقتلوه على هواهم ، يعني إذا لم أعثر على حسون ، سيكون مصيري ، الله أعلم !

قالت بهدوء يتشظّى منه الخوف والحزن معاً :

- ألا يمكن السفر؟ ألا نستطيع أن نسافر؟ لا أُريد أن أقضي بقية عمري أسأل نفسي ثانية : ماذا حلّ به ومتى سيعود؟ لا بد من حل يا سلمان . . .

تلك كانت أول مرة تنطق فيها اسمي بحب حقيقيّ لا شكوك فيه ، تكرر اسمي على لسانها مئات المرات ، هذه المرة كنت أحسها - هنا - في القلب مباشرة ، وبرغم ما كنا فيه من احتراق واحساس بالذل أمام الطغاة ، رأيتني أنظر إليها ، عساني أعثر على هذا اللغز الطافر من خلف لسانها الخفي :

- نحن وحدنا يا عواطف ، ليس من أحد يسمعك ، ماذا جرى في رأسك حقاً؟ قولي ، أسمع صوتك عاشقاً جداً ، أكثر مما كان ألف مرة . . اخبريني ، بماذا وكيف تفكرين؟

قالت وهي تبتسم فوق كومة أحزان ، ابتساماتها السرية التي لم

أفسرها بعد :

- لا بد أن أتعلّم هذا الاسم ، لئلا أنطق اسمك سهواً بين الغرباء . . . أعني لا بد أن أتذكّر متى أقول عبد الباري ومتى سأقول سلمان . .

وسهواً ، ربما غادرني نورس في البحر ، وأنا أغرق ، ليأتي بطوق نجاة خفيف طري ، يسحبني من أعماق الظنون ، من طيات ظنوني ، إلى شاطىء مملوء بالجوز والرمان ، أمسك خصلة من شعرها وأضحك . . هي تضحك أيضاً ، كنا نضحك من فرط الحب واللوعة معاً . . لتَيْنك العينين ، كم رأيت فيهما طفولتي وكم بكيت من أجل أن تكونا لي وحدي :

- أنا أعبدك يا عواطف ، أعبدك وأخاف عليك جداً .

في تلك السَاعة ، في تلك المساحة الضيقة من الزمن ، قامت (القيامة) بالنسبة لي ، لم أُصدِّق هذا النبض ، صار أسرع من غبائي ، صا ر أسرع مني وأنا أسمعها تذبحني بزهور العالم كله :

- أيها الأحمق ، أيها السافل الجميل ، أيها الكذّاب الكبير ، عبد الباري قتلوه منذ عشرة شهور ، أعطوني جثته في الخامسة فجراً . . أنا أتمتع بما تفعله معي ، أشعر بالسعادة وأنا أراكَ تبحث عن أول من رأينا في بيروت ، أتلذّذ بخوفك وانتباهك لكل كلمة وكل جزء من ذكرياتي معه . . أما عبد الباري ، لا بد أن الله سوف يسامحه على كل ما أخبرك به من بلاوي جسدي . . يا لكمية أكاذيبكَ يا سلمان ، يا

لتلك الكمية العجيبة من اعترافات عبد الباري؟؟؟ !

*

كنت أغرق في بلاهتي وأنا أصغي إليها ، تحكي عن هذا البهلوان الذي أمشي بأقنعته المضحكة ، كنا نغرق في الضحك - وأغرق وحدي في تأنيب الضمير - نضحك بعد كل اعتراف ، حتى رأيتها تسكت لحظة قبل أن تقول :

- لكن كيف أخبرك عبد الباري بالندبة التي . . هنا؟ هذا شيء أكاد لا أُصدِّقه أبداً ، هل تراك قلت ذلك مغامرة منكَ أو مقامرة؟

في لحظة من عمري ، أصابني ألم في القلب وأنا أهمس بضعف لا يناسبني أمامها :

- كنا بين الموت والحياة ، بل بين الموت والجنون ، عليك يا «عواطف» أن تفكري كيف عشنا حالة الموت ، كيف أنقذنا أنفسَنا من الجنون ، أمام ذلك تصبح الندبة هذه محض دعابة نكسر فيها حزن ساعة واحدة من ساعات التعذيب . . كنا نشتهي كل ما أحببناه في الماضي ، هل تفهمين هذا؟ كنا نموت فعلاً ، لم نكن نصدق أننا سنرى النور والبشر مرة أخرى ، على ماذا سنخاف أو . . . ليرحمكَ الله يا أجمل إنسان رأيته طوال عمري .

هل بكيت؟ أظنني بكيت كثيراً ، قالت وقد غطّاها حزن لم أره في وجه إنسان منَ قبل :

– أعترف بأنني خائفة عليك ، خائفة عليك أكثر مما تظن ، إذا كان حسون ما يزال على قيد الحياة ، فهو بنفسه من سيأتي إليك . . أنا أعرفه وأُفهم كيف يفكر .

نظرتُ إليها بشوق كأنني لم ألمسها من قبل :

– أنا أيضاً أعرف هذا النوع من البشر ، لا بد أنه بحاجة إلى مجموعة من الرجال .

– ماذا ستفعل إذا جاءك حسون الباز؟

قلت لها وأنا أقضم في جزء من أظافري :

– لا بد أنه يعرف ما عانيت في تلك السنوات ، أظنه سيغفر لي ويتركني لحياتي ، لا أظنه من النوع الذي يرغم انساناً على شيء خطير كهذا .

لم أُصدِّق ما قالته «عواطف» وهي تقترب مني :

– ألا تريد أن تنتقم لنفسك؟ ألا ترى أن السكوت على الجريمة ، جريمة أكبر؟ كانت جروحي تسبقني إلى طلب النجاة من مصير مجهول :

– لم أفكر في ذلك ، أنتقم؟ كيف يمكن الانتقام؟ إنهم كلاب مسعورة لا تعرف الرحمة ، بل لا تفهم حتى معنى هذه الكلمة .

رأيتها تأخذ سيجارة ، وقبل أن تحرقني معها سمعتها تهمس :

– ألا يستحق عبد الباري والذين قُتلوا في هذه الأعوام بعض الوفاء منك؟ إنهم هناك ، بين السماء والأرض ، ينتظرون من يأتي وينقذ ما

تبقّى . .

قلت بصوت يذوب بين لساني ومصيري :

– ولماذا أنا يا «عواطف»؟ أنا مثلهم تماماً ، شبعتُ عذاباً أكثر مما تظنين ، إنها تسع سنين من الضرب والبقاء في غرفة مغلقة لا نوافذ فيها غير كلام عبد الباري . . .

– وكما ترى ، عبد الباري قتلوه ، مئات ، من أحسن شباب الأرض ، لا أحد يعلم بهم ، لا أحد ينتقم لمصيرهم . .

قلت وأنا أدور حول نفسي :

– أنا شبعتُ من الأحزان والدموع والظلام والجوع . .

قالت «عواطف» بهدوء مربك :

– لكنك ما زلتَ على قيد الحياة .

قلت لها وأنا أشمّ رائحة الخجل تتسرب مني :

– أنا لا شأن لي بالسياسة ، لا أريد أن أكون وزيراً ولا ملكاً ، حتى أنني . . مدّت يدها على فمي بحنو جميل ، أغلقت أبواب غبائي وهي تقول :

– السياسة ليست امرأة يا سلمان . . السياسة ليس أن تصبح وزيراً أو أميراً . . لثمتُ أصابعها ، أدري يا سيدتي ، أدري ، والله أن الحياة كلها سياسة ، لكن الذي نحن فيه محض جرائم ، والساسة عندنا قتلة من النوع الحيواني ، لا إحساس ولا ضمير ولا أخلاق ، جزّارون من الصنف الرث ، إنهم ينزفون غباء ورعونة وخراء . .

- أتمنّى من الله يا سلمان ، أن تأخذ بثأرك منهم .

- إذا أخذوني هذه المرة ، سوف . .

- سوف أُحبك أكثر .

القشعريرة تزاحمني ، وأنا أنظر صوب هذه المرأة التي لم يخبرني عبد الباري إلاّ عن جزء ناعم مثلوم من معبدها الشامخ المقدّس :

- ماذا أفعل معهم؟ هم يملكون النار والغرف الانفرادية وأنا . . أنا لا أملك أي شيء ، كل شيء عندهم ، وأنا لا شيء عندي .

قالت بهدوء غامض لذيذ :

- عندك مفتاح واحد إلى قلاعهم الرهيبة . .

نظرتُ إلى أعمق ما في عينيها وهي تخبرني باسم مفتاحي الوحيد :

- حسون الباز .

قلت دون وعي مني .

- أعرف ذلك ، أصبح الأمر عجيباً ومضحكاً بحق ، كنت أخاف العثور عليه لئلا يذبح بين أنيابهم ، والآن ، أنا نفسي سأبحث عنه !

*

هناك محطة من محطات العمر ، لا يمكن نسيانها مطلقاً ، هي نفسها التي أصغيت فيها إلى عواطف وهي تزحزحني من عظامي وتأخذني إلى أغرب ما حلّ في حياتي من أسرار وعجائب :

– لن يطول بحثك عنه ، لن يطول بحثك عن حسون الباز ، أنا أعرف كل شيء ، أنا بؤرة أسرارهم . .

قلت لها بسرعة :

– ألهذا السبب تمّ زواجنا؟ في المحطة نفسها ، كنت أسمع قطاري وهو يدخل في نفق معتم :

– حسون الباز ترك الأمر لي ، أخبرته بما جرى بينكَ وبيني ، أنتَ وحدك من أعاد إليه ابتسامته ، حكيت له عن سفالتك وألاعيبك معي منذ أول يوم أتيت فيه ، لكنه قال كلاماً طيباً عنك ، وهو ينتظر اليوم الذي سيراك فيه . . .

قلت لها وبعض الأسى ينتابني ويحاصرني ويمتصّ بعض دمي :

– هل كان زواجنا ضمن واجبكِ الوطني هذا؟

رأيتها تبتسم وتلتصق بي :

– لكنني أحببتك أيضاً ، بدا الأمر هكذا ، أقرب شبهاً بلعبة ، وانتهى إلى حالة أُخرى .

كنت أطيل النظر إليها وأنا أسأل بكثير من الشك والحزن معاً :

– لا بد أن حسون الباز قد أحبك أيضاً؟

تمتد ابتسامتها إلى نهاية البيت ، ربما راحت تضحك :

– أنت لا تعرف حسون الباز ، أكاد أقول إن هذا الرجل أوشك أن ينسى غرائز البشر المألوفة ، حتى أنه لم يعد يبتسم على أي شيء في الدنيا ، إلاّ يوم أخبرته بزيارتك لي وأعطيته الهويَّة المزوَّرة التي تحمل

اسم عبد الباري . . . هل تدري ماذا قال يومها عنك؟ قال نحن بحاجة إلى هذه الكمية من الذكاء . . البلد (خربانة) يا سلمان ، خربانة تماماً ، الجوع والرعب والمهانة تفتك بالناس ، أفضل شبابنا هاجروا أو قتلوا هنا ، حرام أن نبقى هكذا ، صار الرعاع (والزعاطيط) يسرحون على جلودنا ، فهل تنتظر أن تأخذ النساء بمقبض السكين؟

قلت لها وأنا أمسك بعض رأسي :

- هذا كلام كبير ، أكبر مما نسمعه اليوم ، هل كان عبد الباري يعرف كل ذلك عنك؟

قالت :

- بل يعرف ما هو أكثر ، كنا نعمل معاً ، مسكوه في وقت مبكر ، اعتقلوه وعذّبوه ثم قتلوه ، ولم يصدِّق أي كلب منهم أن الشخص الثاني في لعبة الموت التي كنا نلعبها لم يكن غير «عواطف» !

قلت بشيء من الذل وأنا أشعر أن ثيابي تسقط عني خجلاً :

- اخبريني ، ما هو مكاني (فعلاً) بالنسبة لكِ؟

قالت وهي تمسك يدي بقوة :

- اطمئن ، أنتَ في القلب ، والله أنتَ في القلب أيها الكذّاب الجميل ، أنت في قلبي .

ثم أخذتني إليها بقوة أكبر وهي تهمس في وجداني :

- البلد بحاجة إليك يا سلمان .

- لكنني ، لكنني لست البطل الذي تظنين .

قالت بصوت يزاحمه الكبرياء والعنف :

- أنت أقوى مما تظن .

كانت تصرخ بي :

- سترى كيف أنك أقوى بكثير .

لم أُصدِّق نفسي ، هذه المرأة سلبتني صحوي ، لم أعد أملك أمامها غير الصمت ، أبحث بيني وبين نفسي عن كلام ينقذ ماء وجهي ، عن كلام يناسب «الرجل» الذي صار زوجها ، لم أجد غير جملة واحدة ، تبلعني مرة ، وأكاد أبلعها قبل النطق بها مرة ، قلتها أخيراً وأنا أمسك يديها بين يدي :

- خذيني إلى حسون الباز ، الآن .

*

ربما دام الظلام حولي عشرات السنين ، لكن من تلك الليلة ، أعني من تلك الساعة ، بدأتُ أرى .

١٧ تشرين أول ١٩٩٤

«عـواطف»، تسع سنوات وهي أمـام عـيني، رأت جروحي ودموعي وأنا أنام عن هلع لا أستحقه أبداً، معلّقة - صامتة - بيني وبين عبد الباري على جدار أصم تمكنتْ وحدها من تحريك رعونته وصمته، أريد أن أتذكر:

كيف لصقنا صورتها على حائط السجن؟ كانت الصورة تسقط بين أسبوع وآخر، لكنها تعود فوراً إلى مكانها ونبقى أمامها نحكي عن أوسخ عذاب في الكون، بيني وبين عبد الباري ملامح تشترك في أحزانها ولوعتها، حتى كدنا نتشابه أيضاً في جرسها ونبرتها، بل وبهذا الخيط السرطاني المرعوب الذي يسمعه مني وأسمعه منه بعد كل كلمة وكل حرف ننطق به، صار عبد الباري من نسيجي أنا وابتلعني نسيجه سنة بعد سنة، صرنا نمرض في وقت واحد ونشفى في وقت واحد، ونسينا - معاً - كيف نفسِّر هذا (العجب) الذي يفكر فيه عبد الباري ويراني أقوله قبل أن يخبرني به.

كل شيء في رأسي يمضي فوراً إلى شعاب جمجمته، حتى اشتهائي زوجته وأنا أنظر إلى صورتها، كان يدري به، بل يساعدني على قضاء غرائزي بأصابع تمتد إلى مساماتها على غفلة من الليل والحراس، على غفلة من القهر المستحيل الذي نعيشه في تلك البقعة من بغداد التحتانية.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت